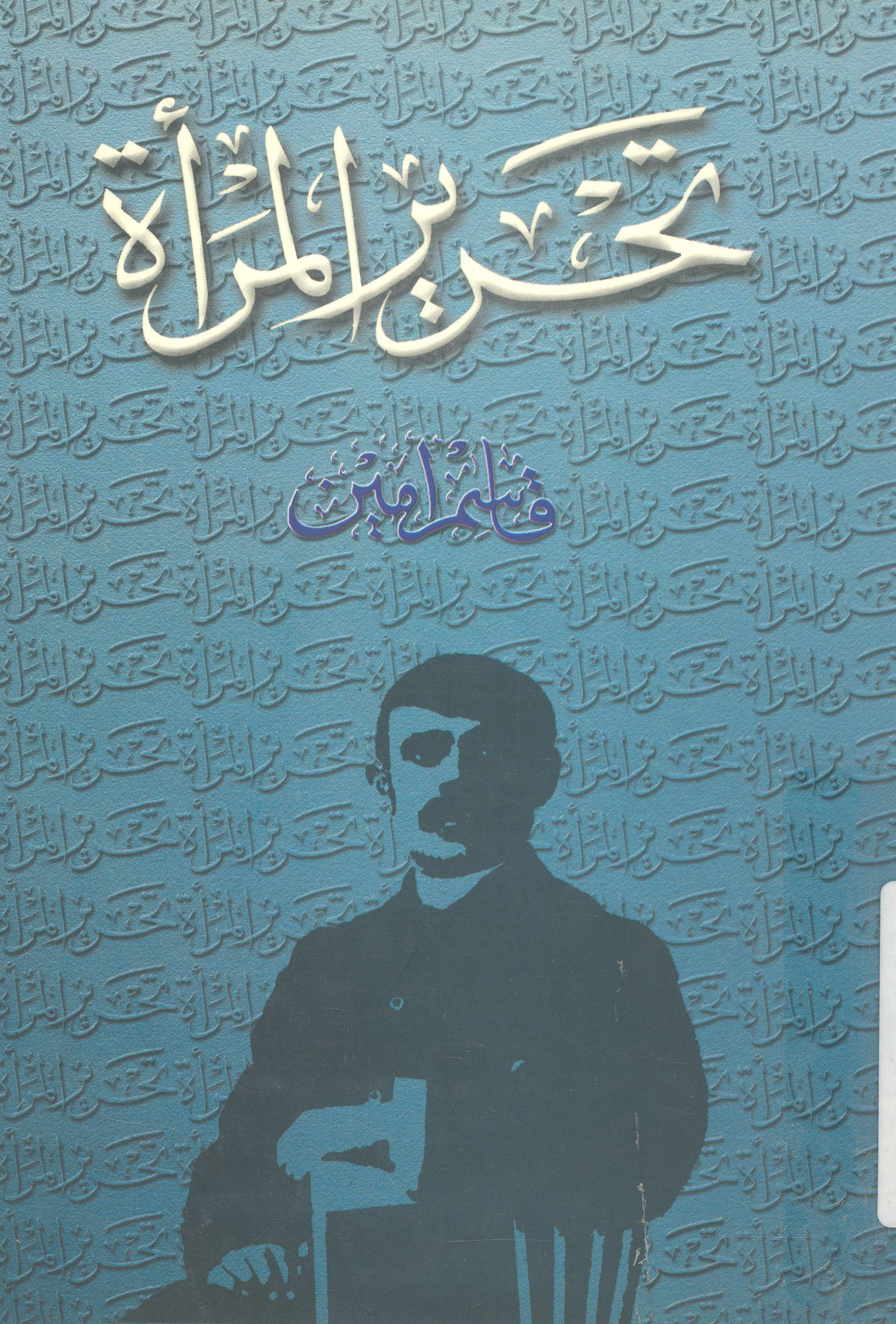
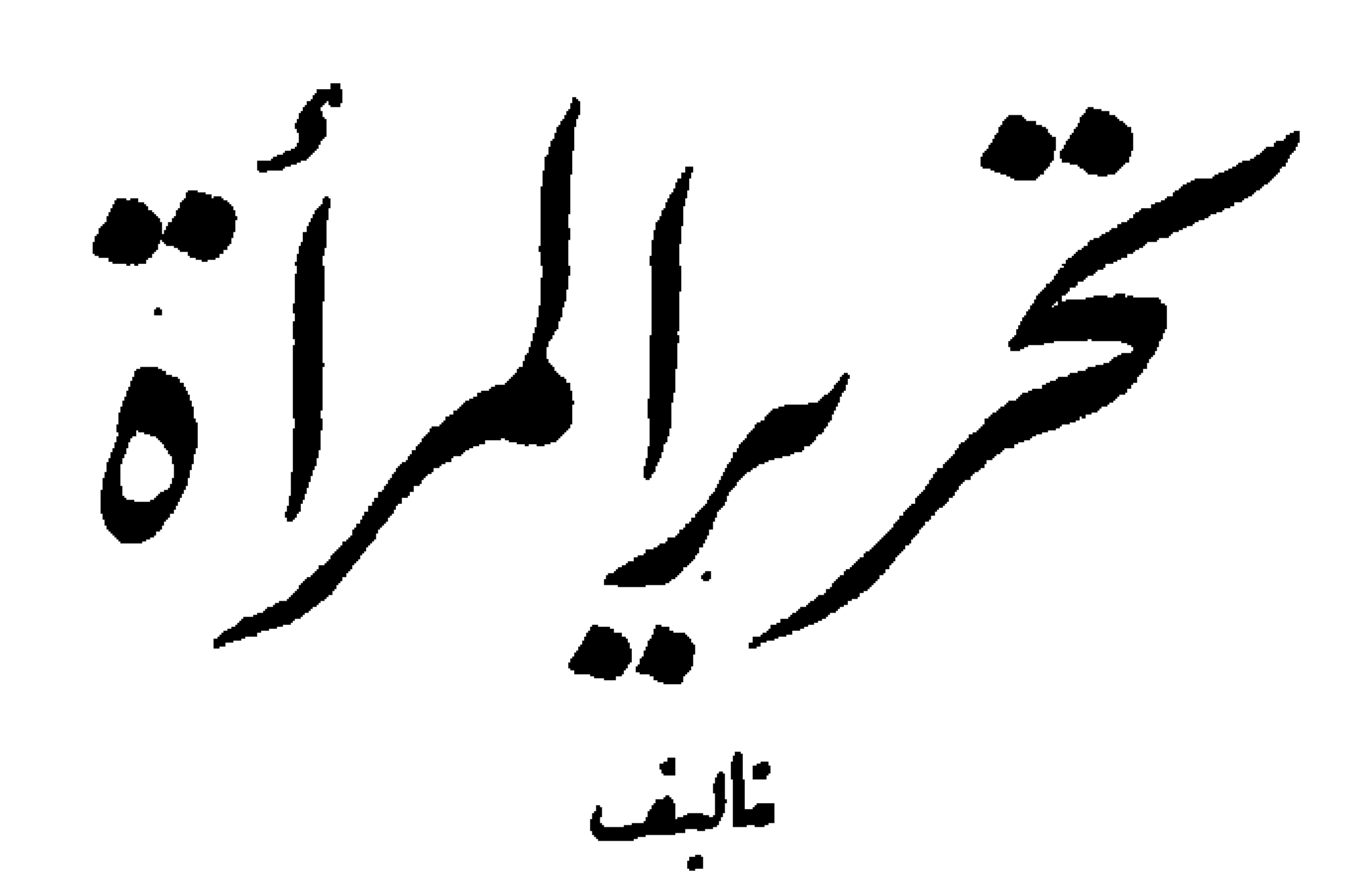

تحرير المرأة
قاسم أمين



تأليف

قاسم أمين

المستشار بمحكمة استئناف مصر الاهلية

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

ملتزم الطبع

محمد علي كامل

صاحب

مكتبة الترقي

ومطبعتها

٤ بشارع عبد العزيز بالقاهرة

سنة ١٣١٦ - ١٨٩٩م

فاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (وبعد) فان البحث فيما عليه نساؤنا الآن من صفات واخلاق وعوائد وما يجب أن يكنّ عليه من ذلك هو من أوجب الواجبات على كل من يحس حقيقة بالفرق بين العائلة عندنا وعند غيرنا أو بالفرق بين العدم والوجود ويود أن يكون عضواً من جسم امة تحيا لانها تعمل عمل الاحياء وترتقى لانها تفعل فعل المرتقين

ولو كانت معرفة أسباب تهدم بناء عائلتنا — أو أمتنا — والوقوف على طرق اعادته بناء عالياً ثابتاً مما يتعين على ذلك العضو الذى يجب أن يكون فى بلاده انسانا حياراقياً فاطلاعه على (تحرير المرأة) الذى انشره اليوم يفى ولاشك بجل حاجته

محمد على كامل

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كل مسئلة من المسائل التي اجملتها في هذه الأسطر القليلة يصح أن تكون موضوعاً لكتاب على حدة . وقد تعمدت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل بعضها كأنها حلقات سلسلة واحدة . وغاية ماأريد هو أن أستلفت الذهن الى موضوع قل عدد المفكرين فيه لا أن أضع كتاباً يوفي الكلام فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني . وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونمي نباتها في أذهان أولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها

ويرى المطلع على ما أكتبه أني لست ممن يطمع فى تحقيق آماله في وقت قريب لأن تحويل النفوس الى وجهة

الكمال فى شؤونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطيء شديد في أثناء حركته الخفية . وكل تغيير يحدث في امة من الامم وتبدو ثمرته فى أحوالها فهو ليس بالأمر البسيط وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج فى نفس كل واحد شيئاً فشيئاً ثم تسري من الأفراد الى مجموع الامة فيظهر التغيير فى حال ذلك المجموع نشأة اخرى الامة

وما نحن فيه اليوم ليس فى الطاقة البشرية تغييره في الحال . وليس من العار علينا أننا وجدنا فى مثل هذه الحالة لأن كل عصر لايسأل الا عن عمله . وانما العار أن نظن فى أنفسنا الكمال وننكر نقائصنا وندعي أن عوائدنا هي أحسن العوائد فى كل زمان ومكان . وأن نعاند الحق وهو واحد لايحتاج فى تقريره الى تصديق منا به وكل مانقوله أو نفعله لانكاره لايؤثر فيه بشيء وانما يؤثر فينا أثر الباطل فى أهله ويقوم حجاباً بيننا وبين اصلاح نفسنا اذ لايمكن لامة أن تقوم باصلاح ما الا اذا شعرت شعوراً حقيقياً بالحاجة اليه ثم بالوسائل الموصلة له

لا أظن أنه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك في أن امته في احتياج شديد الى اصلاح شأنها . فهؤلاء المتعلمون الذين اخاطبهم اليوم أقول أن عليهم تبعة ما نألم له فى عصرنا هذا . ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم أن يسجلوا على أنفسهم وعلى امتهم العجز واليأس والقنوط . فان ذلك صورة من صور الكسل أو مظهر من مظاهر الجبن أو حال من أحوال من لا ثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ولا بشرعه ولا بالهه وأراهم بهذا يستسلمون الى تيارات الحوادث تتصرف فيهم كما تتصرف فى الجماد والنبات وتقذف بهم الى حيث يحبون أو لا يحبون

وقد طرقت باباً من أبواب الاصلاح فى امتنا والتمست وجهاً من وجوهه فى قسم من أفراد الامة له الأثر العظيم فى مجموعها واتيت فى ذلك بما أظنه صواباً فان أخطأت فلي من حسن النية ماأرجو معه غفران سيئة خطأي . وان أصبت كما أظن وجب على أولئك المتعلمين أن يعملوا على نشر ما أودعته فى هذه الوريقات وتأييده بالقبول والعمل

تمهيد

﴿ حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية ﴾

— تابعة لحالة الآداب في الامة —

اني أدعو كل محب للحقيقة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وأنا على يقين من أنه يصل وحده الى النتيجة التى وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التى انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت فى خلالها اقلبها وأمتحنها وأحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلني بورودها وتنبهني الى مزاياها وتذكرني بالحاجه اليها فرأيت ان لامناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر

ومن احكم الأشياء التي يدور عليها تقدم النوع الانساني

ويؤكد حسن مستقبله هذه القوة الغريبة التي تدفع الانسان الى نشر كل فكرة علمية او ادبية متى وصلت الى غاية نموها الطبيعي فى عقله واعتقد انها تساعد على تقدم ابناء جنسه ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها. تلك قوة يدرك سلطانها من وجد فى نفسه شيئاً منها. يشعر انه ان لم يسابقها الى ما تندفع اليه ولم يستنجد بقية قواه لمعاونتها على استكمال ما تهيأت له غالبته ان غالبها وقاومته ان قاومها وقهرته ان عمل في قهرها وظهرت في غير ما يحب من مظاهرها كأنها الغاز المحبوس لا يكتتم بالضغط ولكن الضغط يحدث فيه فرقعة قد تأتي على هلاك ما حواه

والبراهين على ذلك كثيرة فى الماضى فان تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التى قامت فى سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب وكانت الغلبة تارة للحق واخرى للباطل وكانت الامم الاسلامية على هذه الحال في القرون الأولى والوسطى. ولم يزل الأمر على ذلك أو يزيد في البلاد الغربية التي يصح ان يقال فيها ان حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب:

جهاد داخلي بين افراد الامة في جميع فروع المعارف والفنون والصنائع . وجهاد خارجي بين الامم بعضها مع بعض : خصوصاً في هذا القرن الذى الغت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والأبعاد وهدمت الحدود الفاصلة والأسوار المانعة حتى ان الأشخاص الذين ساحوا في جميع انحاء الأرض يعدون بالألوف . واذا الف رجل من مشاهيرهم كتاباً ترجم في اثناء طبعه وظهر في خمس او ست لغات في آن واحد !

ولم يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتى اصبحت كالارض البائرة التى لا يصلح فيها نبات وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح ما يعده أهل الوقت حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأولى أو قضت به المصالح في هذه الازمنة

وكثيراً ما يكتفي الكسول وضعيف القوة في الجدل بان يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة في الاسلام . وما يرمي بهذه الكلمة الا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل في البحث أو الاجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم واقالهم

من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فاقول نعم اتيت ببدعة ولكنها ليست فى الاسلام . بل فى العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها

لم يعتقد المسلم ان عوائده لا تتغير ولا تتبدل وانه يلزمه ان يحافظ عليها الى الابد ؟ ولم يجر على هذا الاعتقاد فى عمله مع انه هو وعوائده جزؤ من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح أمة على سلوك طريق خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان ؟ من ذا الذي يمكنه ان يتصور ان العوائد لا تتغير بعد ان يعلم انها ثمرة من ثمرات عقل الانسان وان عقل الانسان يختلف باختلاف الاماكن والازمان ؟ المسلمون منتشرون في اطراف الارض . فهل هم انفسهم متحدون في العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذي يمكنه ان يدعي ان

ما يستحسنه عقل السوداني يستحسنه عقل التركي أو الصيني أو الهندي . او ان عادة من عادات البدوي توافق أهل الحضر أو يزعم ان عوائد أمة من الامم مهما كانت بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير ؟

والحقيقة أن لكل أمة في كل مدة من الزمن عوائد وآدابا خاصة بها موافقة لحالتها العقلية . وان تلك العوائد والآداب تتغير دائماً تغيراً غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الادبية والعقائد الدينية والنظامات السياسية وغير ذلك . وان كل حركة من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتماً أثر يناسبها في العادات والآداب . وعلى ذلك يلزم ان يكون بين عوائد السوداني والتركي مثلا من الاختلاف بقدر ما يوجد بين مرتبتهما في العقل . وهو الامر المشهور الذي لا ريبة فيه . وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصري والاوروباوي

ولا يمكن ان يتصور أحد ان العادات التي هي عبارة عن طريق سلوك الانسان في نفسه ومع عائلته ومواطنيه وابناء جنسه تكون في أمة جاهلة أو متوحشة مثل ما تكون في

أمة متمدنة لان سلوك كل فرد منها انما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل أمة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى ان سلطان العادة انفذ حكماً فيها من كل سلطان وهي اشد شؤونها لصوقاً بها وابعدها عن التغيير ولا حول للامة عن طاعتها الا اذا تحولت نفوس الامة وارتفعت او انحطت عن درجتها في العقل ولهذا نرى انها تتغلب دائماً على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع . ويؤيد ذلك ما نشاهده كل يوم في بلادنا من ان القوانين واللوائح التي توضع لاصلاح حال الامة تنقلب في الحال الى آلة جديدة للفساد . وليس هذا بغريب فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه

وهذ هو الاصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخي من التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الامة وتوحشها وبين ارتقاء المرأة وتقدم الامة ومدنيتها . فقد علمنا ان في ابتداء تكون الجمعيات الانسانية كانت حالة المرأة لا تختلف عن حالة الرقيق في شيء وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلا تحت

سلطة ابيها ثم زوجها ثم من بعده اكبر اولادها . وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لمالكها . وكان من المباح عند العرب قبل الاسلام ان يقتل الاباء بناتهم وان يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعي ولا حد محدود . ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل افريقا وامريكا المتوحشة . وبعض الامم الاسيوية يعتقد ان المرأة ليس لها روح خالدة وانها لا ينبغي ان تعيش بعد زوجها . ومنهم من يقدمها الى ضيفه اكراماً له كما يقدم له احسن متاع يمتلكه

كل هذا يشاهد في الجمعيات الناشئة التي لم تقم على نظامات عمومية بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة والقوة هي القانون الوحيد الذي تعرفه . وهكذا الحال الآن في البلاد التي تدار بحكومة استبدادية لانها تحكم كذلك بقانون القوة

اما في البلاد التي ارتقت الى درجة عظيمة من التمدن فانا نرى النساء اخذن يرتفعن شيئاً فشيئاً من الانحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التي كانت تبعدهن عن الرجال : هذه

تحبو وتلك تخطو وهذه تمشي وتلك تعدو كل ذلك بحسب حال الجمعية التي تنتسب اليها ودرجة المدنية فيها . فالمرأة الامريكية فى أول صف ثم تتلوه الانجليزية وتأتي بعدها الالمانية وتليها الفرنساوية ثم النمساوية ثم التليانية ثم الروسية الخ . كلها نفوس شعرت أنها حقيقة بالاستقلال فهي تبحث عن الوسائل لنيله. وأنها جديرة بالحرية فهى تسعى للوصول اليها . وأنها من نوع الانسان فهي تطالب بكل حق الانسان

والغربي الذي يحب أن ينسب كل شيء حسن الى دينه يعتقد أن المرأة الغربية ترقت لأن دينها المسيحي ساعدها على نيل حريتها . ولكن هذا الاعتقاد باطل . فان الدين المسيحى لم يتعرض لوضع نظام يكفل حرية المرأة ولم يبين حقوقها بأحكام خاصة أو عامة . ولم يرسم للناس فى هـذا الموضوع مبادىء يهتدون بها . وقد أقام هذا الدين في كل امة دخل فيها بدون ان يترك اثراً محسوساً في الأخلاق من هذه الجهة بل تشكل نفسه بالشكل الذى افادته اياه اخلاق الامم وعاداتها. ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة نساء الأرض

سبق الشرع الاسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الامم وخولها كل حقوق الانسان واعتبر لها كفاءة شرعية لاتنقص عن كفاءة الرجل في جميع الأحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير ان يتوقف تصرفها على اذن ابيها أو زوجها . وهذه المزايا التي لم تصل الى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات كلها تشهد على ان من اصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل ان شريعتنا بالغت في الرفق بالمرأة فوضعت عنها احمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافاً لبعض الشرائع الغربية التي سوت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط وميزت الرجال في الحقوق

والدليل ان تسوية المرأة بالرجل في الحقوق ظاهر في الشريعة الاسلامية حتى في مسئلة التحلل من عقدة الزواج فقد جعلت لها في ذلك طرقاً جديرة بالاعتبار سيأتي الكلام عنها خلافاً لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين

ولم ار الا مسئلة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على

النساء وهي تعدد الزوجات . والسبب في ذلك واضح يتعلق بمسئلة النسب التى لا يقوم للزواج حياة بدونها وسيأتي الكلام عليها ايضاً فيما يلى . وبالجملة فليس في احكام الديانة الاسلامية ولا فيما ترمى اليه من مقاصدها مايمكن ان ينسب اليه انحطاط المراة المسلمة . بل الأمر بالعكس فانها اكسبتها مقاماً رفيعاً في الهيئة الاجتماعية .

لكن وآ اسفاه قد تغلبت على هذا الدين الجميل اخلاق سيئة ورثناها عن الامم التي انتشر فيها الاسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد واوهام ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الامم حداً يصل بالمرأة الى المقام الذي احلتها الشريعة فيه وكان اكبر عامل في استمرار هذه الأخلاق توالى الحكومات الاستبدادية علينا

تجردت الجمعيات الاسلامية على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام . بل اخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائماً فكان لسلطانهم واعوانه

سلطة مطلقة فحكموا كيف شاؤا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة وادارو مصالح الرعية بدون ان يكون له صوت فيها

نعم ان كان الحاكم صغيراً أو كبيراً ملزماً باتباع العدل واجتناب الظلم لكن من المجرب ان السلطة غير المحدودة تغري بسوء الاستعمال اذا لم تجد حداً تقف امامه ورأياً يناقشها وهيئة تراقبها . ولهذا مضت القرون على الامم الاسلامية وهي تحت حكم الاستبداد المطلق واساء حكامها في التصرف وبالغوا في اتباع اهوائهم والالعب بشؤون الرعايه . بل لعبوا بالدين نفسه في اغلب الأزمنه . ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة الى غالبهم

اذا غلب الاستبداد على امة لم يقف اثره فى الانفس عند ماهو فى نفس الحاكم الأعلى . ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم الى من دونهم وينفث روحه فى كل قوى بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه . يسرى ذلك فى النفوس رضى الحاكم الأعلى او لم يرض

كان من اثر هذه الحكومات الاستبدادية ان الرجل فى قوته اخذ يحتقر المرأة فى ضعفها . وقد يكون من اسباب

ذلك ان اول اثر يظهر في الامة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق

قد يمكن ان يتوهم من اول وهلة ان الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل الى الشفقة لما يقاسيه من المصائب التي تتوالى عليه . لكن المشاهد يدل على ان الامة المظلومة لا يصلح جوها ولا تنفع ارضها لنمو الفضيلة ولا يربوا فيها الا نبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين السابقين — وما العهد منهم ببعيد — يعلمون ان شيخ البلد الذى كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مئة من الاهالى . والعمدة الذى كان يضرب مائة كرباج عند عودته الى بلدته ينتقم من مائة فلاح

فمن طبيعة هذه الحالة ان الانسان لا يحترم الا القوة ولا يردع الا بالخوف . ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها واخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس بأرجله على شخصيتها . عاشت المرأة فى انحطاط شديد ايا كان عنوانها فى العائلة زوجة او اماً او بنتاً ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأى خاضعة للرجل لأنه رجل ولأنها امرأة . فنى شخصها

فى شخص الرجل ولم يبق لها من الكون مايسعها الا ما استتر من زوايا المنازل واختصت بالجهل واتحجب باستار الظلمات واستعملها الرجل متاعاً للذة . يلهو بها متى أراد . ويقذف بها فى الطرق متى شآء . له الحرية ولها الرق. له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضيآء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الأمر والنهي ولها الطاعة والصبر . له كل شيء فى الوجود وهي بعض ذلك الكل الذي استولى عليه :

من احتقار الرجل للمرأة أن يملأ بيته بجوار بيض او سود أو بزوجات متعددة يهوى الى أيهن شاء منقاداً الى الشهوة مسوقاً ببادئ الترف وحب استيفاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما اوجبه عليه من العدل فيما يأتي

من احتقار المرأة ان يطلق الرجل زوجته بلا سبب

من احتقار المرأة ان يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النسآء من ام واخت وزوجة ويأكلن مافضل منه

من احتقار المرأة ان يعين لها محافظاً على عرضها مثل اغا او مقدم أو خادم يراقبها ويصحبها اينما تتوجه

من احتقار المرأة ان يسجنها فى منزل ويفتخر بأنها لا تخرج منه الا محمولة على النعش الي القبر

من احتقار المرأة أن يعلن الرجال ان النساء لسن محلا للثقة والامانة

من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل فى أى شيء يتعلق بها : فليس لها رأى فى الاعمال ولا فكر فى المشارب ولا ذوق فى الفنون ولا قدم فى المنافع العامة ولا مقام فى الاعتقادات الدينية وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملي

ولست مبالغاً ان قلت ان ذلك كان حال المرأة فى مصر الى هذه السنين الاخيرة التي خفت فيها نوعاً سلطة الرجل على المرأة تبعاً لتقدم الفكر فى الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم ورأينا النساء يخرجن لقضاء حاجاتهن ويترددن على المتنزهات العمومية لاستنشاق الهواء وترويح النفوس بتسريح النظر في الكائنات التي عرضها الصانع جل شأنه على نظر كل مخلوق رجلا كان او امرأة . وكثير منهن يذهبن مع رجالهن الى السياحة في بعض البلاد الاخرى . وكثير من الرجال قد اعطوا لنسائهن مقاماً في الحياة العائلية

وهذا انما طرأ على بعض الرجال من نشأة الثقة في نفوس اولئك الرجال بنسائهم واطمئنانهم الى اماناتهن : وهو احترام جديد للمرأة

نعم لا ننكر ان هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد . لكن سبب الانتقاد في الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الاحوال التي احتفت به واهمها رسوخ عادة الحجاب في انفس الجمهور الاعظم ونقص تربية النساء . فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الادب ووقف بالحجاب عند الحد المعروف في اغلب المذاهب الاسلامية سقطت كل تلك الانتقادات وامكن للامة ان تنتفع بجميع افرادها نساء ورجالا



تربية المرأة

المرأة وما ادراك ما المرأة . انسان مثل الرجل . لا تختلف عنه في الاعضاء ووظائفها ولا في الاحساس ولا في الفكر ولا في كل ما تقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان اللهم الا بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف

فاذا فاق الرجل المرأة في القوة البدنية والعقلية فذلك انما لانه اشتغل بالعمل والفكر اجيالا طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف في الشدة والضعف على حسب الاوقات والاماكن

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون ان تربية المرأة وتعليمها غير واجبين . بل انهم يتساءلون هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعاً او هو محرم بمقتضى الشريعة !

واتذكر اني اشرت يوماً على اب وقد رأيت معه بنتاً بلغت من العمر تسع سنوات اعجبني جمالها وذكاءها بان يعلمها فاجابني « وهل تريد ان تعطيها وظيفة في الحكومة ؟ » فاعترضت عليه قائلا . « وهل في مذهبك لا يتعلم الا الموظفون ؟ » فاجابني . — « اني اعلمها جميع ما يلزم لادارة منزلها ولا افعل غير ذلك » قال هذا على وجه يشعر انه لا يحب المناقشة في رأيه . ويعنى هذا الاب العنيد بادارة المنزل ان بنته تعرف شيئا من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما اشبه ذلك من المعارف التي لا انكر انها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكني اقول ولا اخشى نكيراً انه مخطيء في توهمه ان المرأة التي لا يكون لها من البضاعة الا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها الى ادارة منزلها

في رأيي ان المرأة لا يمكنها ان تدير منزلها الا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والادبية . فيجب ان تتعلم كل ما ينبغي ان يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائي على الاقل حتى يكون لها المام بمبادىء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشتغال به متى شاءت

فاذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد واجالت النظر في تاريخ الامم ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية استعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والاباطيل التي تفتك الآن بعقول النساء

وعلى من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التي تكمل بها النفس الانسانية في ذاتها . والفضائل التي لها أثر في معاملة الاهل وحفظ نظام القرابة . والفضائل التي يظهر اثرها في نظام الامة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة في نفسها : ولا يتم له ذلك الا بالارشاد القولي والقدوة الصالحة

هذه هي التربية التي اتمنى ان تحمل عليها المرأة المصرية ذكرتها بالاجمال وهي مفصلة في المؤلفات المخصصة لها في كل اللغات . ولا اظن ان المرأة بدون هذه التربية يمكنها ان تقوم بوظيفتها في الهيئة الاجتماعية وفي العائلة :

١

اما بالنسبة للوظيفة الاجتماعية

فلأن النساء في كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الاقل فبقاؤهن في الجهل حرمان من الانتفاع باعمال نصف عدد الامة وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من ان تشتغل مثل الغربية بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة الا جهلها واهمال تربيتها . ولو اخذ بيدها الى مجتمع الاحياء ووجهت عزيمتها الى مجاراتهم في الاعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفساً حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك لا كما هي اليوم عالة لا تعيش الا بعمل غيرها ولكان ذلك خيراً لوطنها لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه

وانما مثلنا الآن مثل رجل يملك راس مال عظيم فيدعه في الصندوق ويكتفي بان يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية الذهب ولو عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه في سنين قليلة

من عوامل الضعف فى كل مجتمع انساني ان يكون العدد العظيم من افراده كلا عليه لا عمل له فيما يحتاج اليه وان عمل كان كالآلة الصماء او الدابة العجماء لا يدري ما يصدر منه

المرأة محتاجة الى التعليم لتكون انساناً يعقل ويريد. بلغ من أمر المرأة عندنا اننا اذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورها ان يكون لها ولي يقوم بحاجاتها ويدير شؤونها كأن وجود هذا الولي امر مضمون فى جميع الاحوال مع ان الوقائع اظهرت لنا ان كثيراً من النساء لا يجدن من الرجال من يعولهن فالبنت التي فقدت اقرباءها ولم تتزوج والمرأة المطلقة والارملة التي توفي زوجها والوالدة التي ليس لها اولاد ذكور او لها اولاد قصر — كل هذه المذكورات يحتجن الى التعليم ليمكنهن القيام بما يسد حاجتهن وحاجات اولادهن ان كان لهن اولاد. اما تجردهن عن العلم فيلجؤهن الى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب او الى التطفل على بعض العائلات الكريمة

ويمكن ان يقال اننا لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبذل نفسها في ظلام الليل لأول طالب. وما أكبر هذه المذلة على المرأة — لوجدناه في الاغلب شدة

الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة

ثم انه لا يكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتي وقعن في العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه . ويمكننا ان نعد هذا من الاسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد

لهذا السبب وغيره نرى الاختلال الجسيم فى مالية العائلات فان الرجل المصري الذي يشتغل لكسب عيشه وعيش أولاده يرى شطراً من المال الذي يجمعه ينفق على أشخاص من أقاربه أومعارفه أو بمن لا علاقة له بهم ولكن تلزمه الرأفة الانسانية بان يبذل لهم من كسبه مايستطيع كيلا يموتوا جوعاً . وهم يرون أنه انما يفعل ما يجب عليه ومع ذلك هم قادرون على الكسب ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة وذلك بسبب ما حرموا من التربية

ولو فرض أن المرأة لا تخلو من زوج أو ولي ينفق عليها أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل ان كان فقيراً أو تخفيف شيء من أثقال ادارة المال داخل البيت ان كان غنياً

فان كانت المرأة غنية بنفسها — وهو نادر — بأن كان لها ايراد من عقارات ونحوها أفلا يفيدها التعليم فى تدبير ثروتها وادارة شؤونها ؟

نرى النساء كل يوم فى اضطرار الى تسليم أموالهن الى قريب أو أجنبي . ونرى وكلاءهن يشتغلون بشؤون أنفسهم اكثر مما يشتغلون بشؤون موكلاتهم فلا يمضى زمن قليل الا وقد اغتنى الوكيل وافتقر الاصيل

نرى النساء يضعن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهلن موضوعه أو قيمته وأهميته لعدم ادراكهن كل ما يحتوى عليه أو عدم كفاءتهن لفهم ما أودعه فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير أو غش أو اختلاس يرتكبه زوجها أو أحد أقاربها أو وكيلها . فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة ؟

على أن التعليم فى حد ذاته هو فى كل حال حاجة من حاجات الحياة الانسانية . وهو الآن من الحاجات الاولى في كل مجتمع دخلت فيه المدنية . واصبح العلم هو الغاية الشريفة التي يسعى اليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته

المادية والروحية . ذلك لان العلم هو الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها شأن الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقي الكرامة والشرف. ولكل نفس حق طبيعي فى تنمية ملكاتها الغريزية الى أقصى حد ترمي اليه باستعدادها

وقد جاءت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال. والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية كل ذلك يستلفت من المرأة مثل ما استلفته من الرجال . فأي نفس شريفة لا تشتاق الى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلباً للحقيقة وللسعادة فى الدنيا والآخرة ؟ وأي فرق بين الرجل والمرأة فى هذا الشوق ونحن نرى أن الصبيان من الذكور والاناث يستوون فى الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت ابصارهم من الحوادث ؟ وربما كان الولع بذلك فى الانثى أشد منه فى الذكر

أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة فى قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها

وارواح الكون تناجيها وتوحي اليها الآمال والرغائب فى فتح كنوز أسرارها ؟

التكاليف الشرعية تدلنا على أن المرأة وهبت من العقل مثل ما وهب الرجل . أيظن رجل لم يعمه الغرض ان الله قد وهبها من العقل ما وهبها عبثاً . وانه اتاها من الحواس وآلات الادراك ما اتاها لاجل ان تهملها ولا تستعملها ؟

يقول المسلمون ان النساء ربات الخدور يعمرن المنازل وان وظيفتهن تنتهي عند عتبة باب البيت . وهو قول من يعيش فى عالم الخيال وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لا ينفذ بصره الى ما وراءه

ولو تبصر المسلمون لعلموا ان اعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها هو لسبب الذي جر ضياع حقوقها . فان الرجل لما كان مسؤولا عن كل شيء استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ولم يبق للمرأة حظ فى نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلا منه على ان يتسلى به

مضت الاجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة

لسلطان الاستبداد من الرجل وهو لم يشأ ان يتخذها الا أمراً صالحاً لخدمته مسيراً بارادته . وأغلق في وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث آل أمرها الى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها ولم يبق أمامها من طرقه الا ان تعيش ببعضها اما زوجة أو مفحشة

ولما لم يبق للعقل ولا للاعمال النافعة قيمة لديها وانما بضاعتها ان تسلي الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بماشاء وجهت جميع قواها الى التفنن في طرق استمالته اليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه

مضت تلك الازمان الطويلة على المرأة ولم يمس عقلها شيء من التربية الصحيحة فضعفت منها القوه العاقلة والمفكرة وانفرد الحس بالتصرف في ارادتها. فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر . وهو الرائد لها في الاختيار بين النفع والضرر . فهي تنفر او تميل. فان احبت اخلصت لا عن عقل . وصدرت منها الاعمال الجميلة في ما تحب ولمن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأي. وان نفرت ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر . فلو كانت

العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لتمت بذلك قوة الحكم على احساسها ولتصرفت في اعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الادب

أضلت المرأة عقلها في ظلمات الاجيال الماضية ففقدت رشدها وادركها العجز عن تناول ماتشتهي من الطرق المسنونة فاضطرت الى استعمال الحيلة وأخذت تعامل الرجل — وهو سيدها وولي امرها — كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه . ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها منزع . فاصبحت ممثلة ماهرة ومشخصة قادرة تظهر في المظاهر المتضادة والألوان المختلفة في كل حال بحسبها . ذلك لا عن عقل وحكمة وانما هي حيل الثعالبة

ولكن لا لوم عليها وعذرها انها ليست حرة . وانما فقدت الحرية لانها فقدت السلامة في قوة التمييز . بل اللوم كل اللوم على الرجال: اريد بهم من سبقنا ممن اهملوا تربية نسائنا

٢

واما بالنسبة للوظيفة العائلية

فيكفي لكل انسان متفكر ان يتأمل فى حالة عائلته ليتأكد ان استمرار الحال على ماهي عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله

انى اكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت عليّ بالتجربة وأخذت بمجامع خواطرى . ولا اريد أن أذكر شيئاً منها لعلمي أنها ما تركت ذهناً حتى طافت به ولا خاطراً حتى وردت عليه . فان مثار هذه الحوادث جميعها هو شيء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لافرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها وهو جهل المرأة. فقد تساوت النسآء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة ولا يظهر اختلافهن الا فى الملبس والحلى . بل يمكن ان يقال انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها . وان آخر طبقة من نسآء الامة وهي التي تسكن الأرياف هي اكملهن عقلا بنسبة حالها

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح

مداركهما في مستو واحد لا يزيد احدهما عن الآخر تقريباً مع اننا نرى ان المرأة في الطبقة العالية أو الوسطى متاخرة عن الرجل بمسافات شاسعة. ذلك لان الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة بل وقفن في الطريق. وهذا الاختلاف هو اكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معاً

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق في منزله وله ذوق مهذب يميل الى الاشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الافراد حداً ينتهي الى اهمال الامور المادية. يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالاشارة. يسكت في اوقات ويتكلم في اخرى ويضحك في غيرها. له افكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه. له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس. وفي كل فكرة تتولد في ذهنه واحساس يؤثر على اعصابه يود ان يجد بجانبه انساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه. وهذا ميل طبيعي يجده كل شخص من نفسه. فاذا كانت امرأته جاهلة كتم افراحه واحزانه عنها ولم يلبث ان

يرى نفسه في عالم وحده وامرأته في عالم آخر . اذ هي تعتبر ان الرجل ما خلق في هذه الدنيا الا ليشتري لها الاقمشة الغالية والجواهر النفيسة وليصرف اوقاته في ملاعبتها كانه صورة اكبر من التي كان يشتريها لها والدها في صغرها لتلهو بها

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر الى نفسه احتقارها واعتبرها من الاعدام التي لا اثر لها في شؤونه وهي متى رأته اهمل واغضى ضاق صدرها وظنت انه يظلمها وبكت سوء حظها الذي ساقها الى رجل لا يقدرها قدرها ونبتت البغضاء في قلبها . ومن ثم تبتدئ عيشة لا أظن ان الجحيم أشد نكالا منها . عيشة يرى كل منهما فيها ان صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة

ولا يظن ان هذا يختص بذوي الاخلاق الفاسدة من الرجال والنساء . فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ولا ذنب على احدهما بل الذنب على اختلافهما في التربية كما تقدم . ومنتهى هذه الحالة — ان استمر الاقتران بينهما — ان يميت احدهما حقه في سبيل راحة الآخر او يجر كلاهما قيده الثقيل الى آخر

العمر . ولكن مهما كان حال الزوجين — وهما ما ذكرنا من الوصف — فلا سبيل الى ارتباطهما برابطة المحبة اذا أخذت بمعناها الخاص . ولا خسران في الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة

جاء في القصص الدينية المسطورة فى الكتب السماوية ان الله خلق حواء من ضلع آدم . وفيه على ما اظن رمز لطيف الى ان الرجل والمرأة يكونان مجموعاً واحداً لا يتم الا باتحادهما ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على ان المرأة والرجل هما شقان لجسم واحد مفتقر بعضه الى بعض ليتم له الكمال بالاجماع

وهذا الانجذاب الغريزى الذي أوجده الله فى كل المخلوقات الحية — حتى النباتات التي يشاهد فى بعضها حركة محسوسة بين الذكر والانثى اذا آن وقت التلقيح على طريقة حار فى تفسيرها علماء الطبيعة — هو اهم عنصر يدخل فى تركيب الحب . وهو يكفي لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف في الانسان عن الحيوان . اما اصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضاً كاصول كل الاشياء تقريباً .

وانما يرجح قسم من العلماء انه سيال يتولد فى المراكز العصبية فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعروا بضرورة اقترابهما . فاذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح . تتكلم عيونهما وتترجم عن الاضطرابات التي تهيج قلوبهما قبل ان ينطق اللسان كأن روحيهما صديقتان افترقتا فى عالم قبل هذا العالم وأخذت كل واحدة منهما تبحث عن الاخرى حتى اذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التي كانت تنشدها وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال واماني اكبر من مجرد التلاقي فتختلطان ويحدث بينهما شبه العهد على أن لا تفترقا . ترى كل واحدة منهما ان لا سعادة لها الا باتصالها بالاخرى

. لكن هذا الانجذاب المادي لا يلبث مدة حتى ياخذ فى التلاشي ويتناقص شيئاً فشيئاً . فمهما كانت شدة الرغبة عند أول التلاقي فهي صائرة الى الزوال فى زمن يختلف طوله وقصره باختلاف الامزجة . وتضمحل تلك الامال وتتساقط تلك الاماني ويكاد التقاطع يحل محل التواصل لولا ما اختص الله به الانسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال بما يستجلى من بهاء الارواح وسناء العقول .فهو

يضم الى المنظر البديع الجسداني منظراً آخر قد يكون ابدع فى اعتباره وهو المنظر الروحاني العقلي . وكثيراً ما يستبدل لذة الحس التي لا بقاء لها بلذة العقل والوجدان التي لا تنتهي اطوارها ولا تفنى مظاهرها . يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر . ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كانه طبع لها اذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق فى العمل مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الامانة والاخلاص فى الولاء ونحو ذلك من الفضائل المعنويه التي ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية . ووجدان اللذة بهذه المعاني عنصر آخر يدخل فى تركيب الحب ايضاً — ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام.

واما ما يروى من أن رجلا عشق امرأة عشقاً روحانياً محضاً أو ان آخر عشق أخرى للذة المادية ليس الا بدون اعتبار تلك الصفات الادبية فقد يكون لان الاول رجل خيالي والثانى رجل جاهل شهوي . على ان التجارب دلت على ان

هذه الشهوات البتراء ليس لها حظ من البقاء . فهي كالنار ذات اللهب تهب وتنطفي بسرعة

واليك بياناً يزيد وضوحاً فى فهم ما تقدم .

اللذة الجسمانية المتحدة فى النوع مهما تخالفت في الافراد فهي دائماً واحدة . فان افراد اللذة المتحدة فى النوع تتشابه الى حد تكاد لا تتميز الا باختلاف الزمان او المكان مثلا فما تحصل منها اولا هو ما يحصل ثانياً وثالثاً ورابعاً وهكذا

ومن البديهي ان تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظر او لذة سمع او لذة ذوق او لذة لمس يفضي في الغالب الى فقد الرغبة فيها فيأتي زمن لا تتنبه الاعصاب لها لكثرة تعودها عليها والامر بخلاف ذلك بالنسبة للذه المعنوية . هذه اللذة فى طبيعتها انه يمكن تجددها فى كل آن . تأمل فى مسامرة صديقين تجد انها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه فى روح الاخر فيسري عقلهما من موضوع لموضوع وينتقل من الجزئيات الى الكليات ويمر على الالام والامال والقبيح والحسن والناقص والكامل . كل عمل او فكر او حادث او اختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً ويفيد

انفسهما لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية و الوجدانية وكل ما تجلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ويزيد في رابطة الالفة بينهما عقدة جديدة

ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الانسان وكيف أن العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من أكبر السعادات في هذه الدنيا . فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها

فهذا الحب لا يمكن أن يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب فى التربية والتعليم . ولا يجب ان يفهم ان الرجل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يمكنها أن تحبه. فان توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم لان الحب الحقيقي الذى عرفت عنصريه المادي والمعنوي لا يبقى الا بالاحترام . والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه. والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها .

سل جمهور المتزوجين هل هم محبوبون من نسائهم يجيبونك نعم . لكن الحقيقة غير مايظنون — اني بحثت كثيراً فى عائلات

مما يقال انها فى اتفاق تام فما وجدت الى الآن لا زوجاً يحب امرأته ولا امرأة تحب زوجها . اما هذا الاتفاق الظاهري الذي يشاهد فى كثير من العائلات فمعناه انه لا يوجد شقاق بين الزوجين اما لان الزوج تعب وترك واما لان المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه واما لانهما الاثنان جهلان لا يدركان قيمة الحياة . وهذا الحال الاخير هو حال أغلب الازواج المصريين . ولا ارى ما يقرب من السعادة الا فى هذا النوع الاخير وان كان سعادة سلبية لا قيمة لها

اما فى النوعين الاولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال وهو فناء احد الزوجين في سبيل ابقاء الاخر . وغاية ما يمكن ان اسلم به هو أنه قد يشاهد فى عدد قليل من الازواج شيء يقرب من المودة يظهر فى بعض الاحيان ثم يختفي . وهو استثناء يؤيد القاعدة وهي عدم الحب . عدم الحب من طرف الزوج لان امرأته متأخرة عنه فى العقل والتربية تأخراً فاحشاً بحيث لا يكاد توجد مسئلة يمكن ان يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل . لا يكاد يوجد امر يتفقان فى الحكم عليه برأي واحد . ولانها

بعيدة عن العواطف والمعاني والاشغال التي يميل اليها ومغمورة في شؤون ليس لها من ميله نصيب . حتى في الامور التي هي من عملها وترى أنها خلقت لاجلها لا يرى منها زوجها ما يروق نظره . فاكثر النساء لم يتعودن على تسريح شعورهن كل يوم . ولا على الاستحمام اكثر من مرة في الاسبوع ولا يعرفن استعمال السواك . ولا يعتنين بما يلي البدن من الملابس مع ان جودتها ونظافتها لها أعظم تأثير في استمالة الرجال ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج وكيف يحافظ عليها وكيف يمكن تنميتها وكيف تكون موافاتها . ذلك لان المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنه وتغيب عنها معرفة اسباب الميل والنفور فاذا ارادت ان تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك

واما عدم الحب من طرف المرأة فلانها لا تذوق معنى الحب . ولو اردنا ان نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجد انه يتركب من امرين ميل اليه من حيث هو رجل أبيح لها ان تقضي معه شهواتها . وشعور بان هذا الرجل نافع لها للقيام بحاجات معيشتها . اما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل

منهما الاخرى من بين آلاف من سواهما امتزاجاً تاماً يؤلف منهما موجوداً واحداً كأن كلا منهما صوت والاخر صداه . ذلك الاخلاص التام الذى ينسي الانسان نفسه ولا يدع له فكراً الا فى صاحبه . ذلك الاخلاص الذى لا نجد له مثالا اظهر من حب الوالدة لولدها — فهي بعيدة عنه بعد السماء عن الارض . لان الحب بهذه الدرجة ان لم يكن طبيعياً كحب الام لولدها فهو ثمرة عزيزة لا تطلب الا عند النفوس العالية التي تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار

والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى انه طويل او قصير ابيض او اسود . اما قيمة زوجها العقلية والادبية وسيرته وطهارة ذمته ودقة احساسه ومعارفه واعماله ومقاصده فى الوجود وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى ان يكون محترماً محبوباً ممدوحاً فى امته — فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه . وان وصل فلا يؤثر على منزلته فى نفسها . وعلى هذا يكون أول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن أنها تحبه

نرى نساءنا يمدحن رجالا لا يقبل رجل شريف ان يمد

لهم يده ليصافحهم ويكرههن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفاً لنا . ذلك لان المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها . فاحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مال لا يفنى لقضاءما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى . وابغض الرجال عندها من يقضي اوقاته في الاشغال في مكتبه . كلما رأته جالساً منحني الظهر مشغولا بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التي تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي الا بنزاع جديد ولا يدري الزوج المسكين ما يصنع اذا اراد ان يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . أراه في حيرة اشد من الرجل الذى جمع بين زوجتين . فقد رأينا احياناً كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل واحد . وما سمع قط ان امرأة مصرية ممن نعني رضيت بمباشرة العلم

ومن البديهي ان الرجل الذي يكون هذا حاله ينتهي بفقد كل استعداد للعمل . لان العلم لا يثمر الا اذا كان العقل متمتعاً بالهدؤ والسكون خاليا عن الاضطراب والتشويش . ولان

الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه

رأينا مما تقدم ان المرأة المصرية لا تجد ذوق الحب خصوصاً اذا كان زوجها متعلماً يصرف وقته في الاعمال النافعة

قد يقال أن الحب الذي تكلمت عنه هو من كمال السعادة . وليس من الامور الضرورية التي لا يستغنى عنها في الزواج. وانه عند فقده يمكن أن يعوض بصفات أخرى عند الزوجة ويكفي أن المرأة تكون رفيقة لزوجها شريكة له في المنافع والمضار ولذلك فهي تساعده على حاجات الحياة ليتم له بعض السعادة — هذا يمكن أن يكون . ولكن كيف الوصول اليه ايضاً مع جهل المرأة

قلت ان المرأة الفلاحة مع جهلها هي زميلة الرجل فى كل أعماله وهي قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها . ذلك سهل لان العيشة فى الارياف ساذجة بدوية تقريباً وحاجات العائلة قليلة . اما فى المدن التي ترقت فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتشعبت طرق المنافع وبلغت فيها ادارة المنزل الى درجة ادارة مصلحة من كبار المصالح فالمرأة التي يسلم اليها زمامها لا يمكنها ان تديرها الا بالتعليم والتربية

والحقيقة ان ادارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمنصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل فى مالية العائلة . وعليها مراقبة الخدم بحيث لا يفلتون لحظة من مراقبتها وبغير هذا يستحيل ان يؤدوا خدمتهم كما ينبغي . وعليها ان تجعل بيتها محبوباً الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا آوى اليه . فتحلو له الاقامة فيه ويلذ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب الفر منه ليمضي اوقاته عند الجيران أو فى المحلات العمومية وعليها ـ وهو أول الواجبات واهمها ـ تربية الاولاد جسماً وعقلا وأدباً

وظاهر ان تطبيق هذه الواجبات التي ذكرتها بالاجمال على العيشة الجارية بالتفصيل يستدعى عقلا واسعاً ومعلومات متنوعة وذوقا سليماً : لا يتأتى وجود ذلك فى المرأة الجاهلة وخصوصاً ما يتعلق منها بتربية الاطفال .

بالغنا فى نسيان ان الاولاد هم صناعة الوالدين وان الامهات لهن النصيب الأوفر فى هذه الصناعة . بالغنا فى اعتقاد ان الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد . وانه

يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء . وهو اعتقاد صحيح اذا أخذ عن جهة ان الله قادر على كل شيء ومن متناول قدرته ان يفعل مثل ذلك . فان كان المقصود ان الله يمكنه ان يفعل مثل هذا فلا شك فى قدرته سبحانه وتعالى . وليس من ينازع فى انه لو شاء فعل ذلك . كما انه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولأنبت الحيوان من الارض . لكن الله وضع للعالم سنة والحياة نظاماً وللمخلوقات نواميس تجري عليها احكامها :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم » وتاريخ الانسانية من عهد وجودها على الارض الى الآن ايد ثبات هذه السنن واستمرارها

من اكبر مظاهر حكمته جل شأنه هذه الحقيقة التي كشفها لنا العلم وهي ان كل فرد من الانواع الحية — وفيها النوع الانساني — ليس الا نسخة مطابقة للاصل المتولد منه . ففيه صورة نوعه الكلي وفيه صورة والديه خصوصاً . بمعنى ان هذا الفرد يحتوي اولا على الخواص المميزة لنوعه وعلى الصفات الخاصة بابويه

ودلت الاكتشافات الحديثة ايضاً على ان كل الملكات

العقلية والادبية في الانسان انما هي مظاهر من وظائف المخ كما ان الصفراء من عمل وظيفة الكبد . وما يسمى عقلا او عاطفة فلا عمل له الا عمل تلك الوظائف وعملها تابع لحالة الاعصاب والمخ . وانما مادة تلك الاعضاء منتزعة من الاصل الذى تولدت منه فلا ريب ان يكون لها تبعية عظمى لذلك الاصل . ثم من الظاهر ان الجسم لا يستغني في نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الاولى بل لا بد في النمو والبقاء من التربية والغذاء. فكذلك حال العقل والملكات لا يستغنى بما اودعته المدارك والقوى من الاستعداد الاول بل لا بد في ظهور اثرها وسيرها فيما اعدت له من الغذاء الذى يوافقها والتربية التي تلائمها . فالوراثة والتربية هما الاصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الطفل ذكراً كان او انثى وليس هناك شيء من وراء ذلك

فبالوراثة يكسب الطفل استعداداً لكل ميل كان عليه الوالدان صالحاً كان اوفاسداً ويرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو في بطن امه فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه اسلافه من جهة الام ومن جهة الاب .وبالتربية يمتلىء ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس وبأثرها في نفسه الماً كان او لذة.

وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول الى ادارة مربيه. فهو الذي يريه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم. وهو الذى يعرض على وجدانه من العواطف ما يراه لائقاً به . فان لم يرد عليه من صور المحسوسات الا ما هو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة. او لم يشعر من العواطف الا بما يظهر أثره فى أقرب الاشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع اول خاطر يبدو له كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون . وان كانت معلوماته كثيرة تحتوي على صور الاشياء وصور ما يحدث عنها لاول التصور وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك وكان وجدانه رقيقاً لطيفاً كان الناشيء كثير التأمل شديد التبصر بطيء الاندفاع مع أول انفعال يتأثر به من الحس والشعور . فينشأ وبيده ميزان يزن به اعماله ويقدر به حركاته ويشاهد فيه وهو فى صباه الميل الى النافع والنفرة من الضار

لا نقول ان الطفل يكون فى ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد . ولكنها اوائل وجراثيم من الكمال العقلي والادبي تصل بالتنمية والتربية الى تلك الغايات الشريفة التي يسعى اليها كل من عرف معنى الانسانية وذاق لذة الفضيلة . فسلامة

العقل لا تتم الا بحسن الوراثة وحسن التربية وهذا ما جعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد في الاخلاق الى مرض في المخ او في الاعصاب موروث او مكتسب . وان شوهد ان الولد لا يشابه ابويه في بعض الاحوال فذلك انما لان قانون الوراثة قد يرجعه الى حد اسلافه القريبين

متى حسنت التربية على الوجه الذي ذكرناه ضعف الاستعداد الذي كسبه الطفل من والديه ان كان رديئاً وتاصل فيه استعداد جديد يرثه عنه من يتولد منه ويقوى فيه ذلك الاستعداد ان كان حسناً فيبلغ غاية ما يرجى لانسان فاضل من ابوين فاضلين ويظهر اثر ذلك ايضاً في اولاده واعقابه ان استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذي صار به هذا الوالد رجلا صالحاً . اما ان كانت التربية فاسدة وكل ما يرد على الطفل انما يثير فيه أهواء باطلة فالاستعداد الخبيث يقوى والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ويجني على أولاده تلك الجناية التي جناها عليه والده

قال الغزالى فى التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهيت ان اوردها هنا وهي : الصبي امانة عند والديه . وقلبه الطاهر

جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش . ومائل الى كل ما يمال اليه به . فان عود الخير علمه وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب . وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والوالي له . وقد قال الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم ناراً »

والتربية تنحصر فى أمر واحد هو تعويد الطفل على حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال . والوسيلة الى ذلك واحدة هي ان يشاهد الطفل آثار هذه الاخلاق حوله . لان التقليد فى غريزة الطفل يكتسب به كل ما تلزم معرفته. فان كانت الام جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل ما يزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة . ويرى من الاعمال ما لا ينطبق على محاسن الادب فيتخلق بالاخلاق الفاسدة ويعتاد العوائد الفاسدة

ويرى الاسوة السيئة فى بيته وفى الخارج وكلما تقدم فى السن رسخت فيه هذه الاخلاق وكبرت معه بكبره . فاذا

وصل الى سن الرجولية رأى نفسه أو رآه الناس رجلاً سيء التربية ولا سبيل له بعد ذلك الى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله . ويندر جداً ان يوجد شخص يبتديء بعد بلوغه سن الرجولية في اصلاح ما فسد من ملكاته ثم ينجح في ذلك . اللهم الا الى حد محدود

ومن المعلوم ان الطفل لا يعيش من طفوليته الى سن التمييز الا بين النساء . فهو دائماً محاط بأمه واخوته وعماته وخالاته وخادماتهن وصواحباتهن ويرى أباه في أوقات قليلة. فاذا كان هذا الوسط الذي ينشأ فيه طيباً كانت تربيته طيبة وان كان سيئاً ساءت تربيته . والأم الجاهلة ليس في استطاعتها ان تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لانها لا تعرفها. وغاية ما تستطيع هو انها تدعه يلتقط الخلال الرديئة مما يعرض له ان لم تبذر بيدها حبوبها في نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة

أليس من جهل الأم بقوانين الصحة ان تهمل ولدها من النظافة فيعلوها الوسخ وتتركه متشرداً في الطريق والأزقة يتمرغ في الاتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها ان تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذي هو رأس ماله

مضطجعاً أو نائماً أو لاهياً مع ان سن الطفولية لايعرف الكسل وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من أثر جهلها اننا جميعاً مصابون بشلل في أعصابنا حتى صرنا لا نتأثر من شيء مهما بلغ في الحسن والقبح . فاذا رأينا عملاً جميلاً مدحناه من طرف اللسان . واذا شاهدنا فعلا قبيحاً استهجناه بهز الرؤوس وظاهر من القول بدون ان نشعر بانبعاث باطني يقهرنا على الاندفاع الى الاول ولا على الابتعاد عن الثاني ؟ أليس من جهلها ان تسلك في تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت . وان تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفي زوايا الاضرحة وغير ذلك مما لا يبالي به الجاهلون بأصول الدين وفضائل الاعمال وله من الاثر السيء في أنفس الناشئين بل وفي أرواح الرجال ما يجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟

قد صار من المقرر عندنا ان الامهات لا يفلحن في تربية الاولاد حتى صار من المثل في الخطة ورداءة السير ان يقال فلان تربية امرأة — على اننا نرى ان تربية المرأة في البلاد الغربية تفوق تربية الرجال . وان أحسن الناس تربية هم من

ساعدهم الدهر في ان تتولى تربيتهم امرأة. وليس هذ بغريب فان المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هي بها أقوى استعداداً للنجاح في التربية. ذلك انها أصبر من الرجل فيما تحب. وانها ألطف منه في المعاملة وأرق منه في العواطف والاحساسات. ويفتخر الغربيون بتأثير النساء في أحوالهم حتى بعد بلوغ رشدهم. فقد قرأت في أحد كتب رونان الفيلسوف الشهير ما نحصله: «أن أجمل ما وضعه مؤلفاته كان الهاماً من أخته» وقال الفونس دوديه الكاتب المجيد في بعض ما كتبه: «ان كنت استحق فخراً فلامرأتي نصفه» وأمثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على أحوال الاوروباويين. وكلها تدل على ان تربية المرأة امر لا يُستغنى عنه. وان القسم الاعظم منها منوط بالمرأة

وقد نجد في هدى نبينا صلى الله عليه وسلم ما يشير الى ذلك. بل كان يجب ان يعد أصلا من الاصول التي نركن اليها في بناء أمورنا الملية حيث قال في شأن عائشة رضي الله عنها: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»: وعائشة امرأة لم تؤيد بوحي ولا بمعجزة وانما سمعت فوعت وعلمت فتعلمت

أود ان كل مصري يرى ان مسئلة التربية عندنا هي أم سائر المسائل وان كل مسئلة غيرها مهما كانت أهميتها داخلة فيها

عرف المصريون بعوائد واخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها . تلك العوائد والاخلاق ليست معروفة في الدين ولا هي موافقة لما يستحسنه العقلاء حتى من المصريين انفسهم وقل ما يشاهد مثلها عند غيرهم

وقد آن الوقت على ما أظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية. تربية تنشيء رجالا أولي علم وأصالة رأي يجمعون بين المعارف والاخلاق والعلم والعمل. تربية تنقذنا من جميع العيوب التي يقذفنا بها الاجنبي في كل يوم وبكل لسان كلها ترجع مهما اختلفت في الاسم الى سبب واحد وهو النقص في تربية نفوسنا . وقد اتفق جميع اهل النظر في مصر على ان التربية هي الدواء الوحيد لذلك الداء . وانتشر هذا الرأي الصائب في الكتب والجرائد واحاديث المجالس حتى صح ان يقال انه اصبح رأياً عاماً . وتولد عن ذلك شعور بان مستقبل الامة تابع لتربيتها

ولكن ارى همم الناس موجهة الى التعليم ولا ارى احداً يلتفت الى تربية النفوس. وارى ان الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور . مع ان تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التعليم فذلك غير ضروري . وانما اطلب الآن ولا اتردد في الطلب ان توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الاقل. وان يعتنى بتعليمهن الى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين

أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فاراه غير كاف .لانهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة اجنبية وشيئاً من الخياطة والتطريز والموسيقى ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت اليها . وربما زادتهن تلك المعارف غروراً بانفسهن فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت ان تقول نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت اترابها وارتفع شأنها وسما عقلها . ولا تتنازل بعد ذلك لان تشتغل بعمل من الاعمال المنزلية .فتقضي حياتها فى تلاوة اقاصيص وحكايات قل ما تفيد الا فى اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه

طرفها وهي شاخصة الى دخان السيجارة التي تقبض عليها

اكثر ما تعرفه المرأة التي يقال الآن انها متعلمة هو القراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها. وما بقى من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر ثم تتغلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء . اين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوى بها على مطاردة الوهم ! لا شيء ينفع الانسان مثل اكتسابه ما يسمى عقلا عمليا. اريد بذلك ما يقابل التخيل الذي يعيش به صاحبه فى اوهام وهواجس لا ترجع الى حق ثابت . فان كل مصائب الانسان تأتي له من باب واحد وهو الخيال : كلما تجرد الانسان عن الاوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر ما يبعد عن الحقيقة .

الحقيقة هي ضالة الانسان فى العالم ويجب عليه ان يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب . الحقيقة هي الكنز الذى أودع الله فيه كل آمال الانسان لا يجدها الا من رغب فيها ومال عن سواها . الحقيقة هي مشرق السعادة لانها الوسيلة وحدها لوصول الانسان الى كمال العقل والنفس. والنساء مثل الرجال

في الحاجة الى معرفة الحقيقة والى اكتساب عقل يحكم على نفوسهن ويرشدهن في الحياة الى الاعمال الطيبة النافعة

أنظر الى الطفل تجده يشتهي وينفر ويحب ويكره ويفرح ويحزن ويضحك ويبكي ويسكن ويغضب وهو في كل ذلك انما ينفعل بحس وينبعث بوهم وينقاد الى خيال . واذا أراد شيئاً فمنع عنه لم يستعمل للوصول الى غرضه الا شيئاً من الغش والمكر والكذب . لم ذلك ؟ لان عقله ضعيف ومعارفه قليلة . ولم تصل قواه العقلية الى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الاعمال والرغائب والآلام حتى تحمله على الصبر أحياناً وطلب المرغوب من أبوابه ووسائله الصحيحة أحياناً أخرى : والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل . فيما ذكرنا

سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا انهن أعوان ابليس ! فلا تسمع الا ذماً لخصالهن وتنقيصاً لعقلهن وتحذيراً من مكرهن . وانا لا أبرىء النساء الآن من هذه الصفات . ولكن أرى ان التبعة ليست عليهن بل على الرجال

هل صنعنا شيئاً لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتثقيف

عقلها ؟ أيجوز ان نترك نساءنا فى حالة لا تمتاز عن حالة الا نعام أيصح أن يعيش النصف من أمتنا في ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئاً مما يحوطهن كما في الكتاب صم بكم عمي فهم لا يعقلون! أليس بينهن أمهاتنا وبناتنا واخواتنا وزوجاتنا . وهن زينة حياتنا الدنيا والجزؤ الذي لا يمكن فصله منا دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن ؟ أليس الرجال من النساء، والنساء من الرجال وهن نحن ونحن هن؟ أيتم كمال الرجل اذا كانت المرأة ناقصة ؟ وهل يسعد الرجال الا بالنساء ؟

نحن حرمنا أنفسنا من أكبر لذة في الدنيا وهي التمتع بمحبة ذوي القربى من النساء

كل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمر به بدون ان يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط أنفسنا بعضها ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه أو اخته او زوجته. ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فاننا نشفق عليهن ونحن اليهن ونعذرهن. ولكن لا تكمل

محبتنا لهن لان الحب التام هو ذلك التوافق . وهو معدوم

والانسان محتاج الى ان يكون محباً وان يكون محبوباً ومن فضل الله عليه ان وضع بجانبه امهات وزوجات وغرس في قلوبهن محبته وفي قلبه محبتهن وهذا اكبر نعمة من الله علينا بها لان هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة اذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا في سجن الحياة وهونت علينا الآلام والمصائب التي لولا هذه التسلية لافضت في بعض الاوقات بأقوى رجل منا الى اليأس . فعدم تقديرها قدرها وانصراف العناية عن تنميتها وتكميلها كفران بنعم الله وتقصير في شكره

بقي علينا ان ندفع اعتراضاً لا يمكننا السكوت عنه لانه في الحقيقة هو المانع الوحيد الذي اتفقت أغلب العقول على وضعه حاجزاً يحول بين المرأة والتعليم : وهو الخوف من ان التعليم يفسد أخلاقها

رسخ في اذهان الرجال ان تعليم المرأة وعفتها لا يجتمعان وقال الاقدمون في ذلك اقوالا طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش

والحيلة . فلو تعلمت لم يزدها التعليم الا براعة في الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة . فخذونا مثالهم واعتقدنا ان التعليم يزيد تفننها في المكر ويعطيها سلاحا جديداً تتقوى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المفاسد

اما ان المرأة الآن ناقصة العقل شديدة الحيلة فهذا مما لا يختلف فيه اثنان. وقد بينا ان هذه الحالة هي اثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما اجيالا طويلة . وانه متى زال السبب فلا شك ان المسبب يتبعه . واما كون التعليم يفسد اخلاقها فهذا ننكره ونشدد النكير عليه فان التعليم — خصوصاً اذا كان مصحوباً بتهذيب الاخلاق — يرفع المرأة ويرد اليها مرتبتها واعتبارها ويكمل عقلها ويسمح لها ان تفتكر وتتأمل وتتبصر في اعمالها. وان وقع ان امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية فقد وقع ان الوفاً من النساء الجاهلات دنسن عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادم او خادمة او دلالة او جارة عجوز

والحقيقة ان طهارة القلب في الغرائز والطباع. فان كانت

المرأة صالحة زادها علمها صلاحاً وتقوى . وان كانت فاجرة لم يزدها العلم فجوراً . وهكذا الحال فى الرجال . وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه . فقد قال الله فى شأن كتابه: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين »

فأثر التعليم لا يمكن ان يكون ضرراً محضاً. ولا يمكن ان يكون منشئاً حقيقياً لضرر . والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الامور اكثر مما تخشاه الجاهلة ولا تقدم بسهولة على مايضر بحسن سمعتها. بخلاف الجاهلة فان من اخلاقها الطيش والخفة. واذكر ملاحظة واحدة تؤيد ما قدمته وهو ان نساء الافرنج على العموم مهما كان حالهن فى الباطن يحافظن على الظواهر فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضاً اياما واشهراً ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافيا بينهما وتراهن فى الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والسكينة والوقار يغضضن ابصارهن عن الرجال وان نظرن اليهم فمن طرف خفي. اما نساؤنا المصريات فيغلب فيهن ان يكون باطنهن خيراً من ظاهرهن ومتى رأت الواحدة منهن رجلا نظرت اليه

وتأملته؛ والتفتت نحوه ولوت عنقها اليه ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء في بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهن في الطرق والمجتمعات العامة من الامور المخلة بالاداب التي يستحي القلم عن ان يجري برسمها : هذا الفريق من الاجانب يصعب تمييزه عن الحرائر الا ببعض امور يعرفها أهل الخلاعة

ثم ان البطالة التي ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كأنها من لوازم حياتهن هي ام الرذائل . ان كان نساؤنا لا يعملن شيئاً في المنازل ولا يحترفن بصنعة ولا يعرفن فناً ولا يشتغلن بعلم ولا يقرأن كتابا ولا يعبدن الله فبماذا يشتغلن حينئذ ؟ اقول لك وأنت تعلم مثلي انما يشغل امرأة الغني والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع الى ما لا نهاية له ويتشكل في كل آن بشكل جديد وهو ينبوع رضاها او سخطها على حسب الاحوال . ذلك الامر هو علاقتها مع زوجها . فتارة تتخيل انه يكرهها . وتارة تظن انه يحبها . واحياناً تقارنه بازواج جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسباً

او خاسراً واحياناً تجرب ميله لتعلم هل تغير اوهو باق. واحياناً تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوي قرابته لتنزع منه محبتهم ان كان ودوداً لهم. ولا تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات وتجعله دائماً موضوع الشك. ومن وسائل الاحتياط ان لا تقبل الخادمة الا اذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها اليها. ولا تستريح من هذا الشاغل الا اذا افرغته في اذن اخرى من امثالها. فاذافرغت من تصويره في العبارات رجعت الى تمثيله في الخيالات وهكذا. ولهذا ترى اذا اجتمعت مع جاراتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير وبخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فتقص ما بينها وبين زوجها واقارب زوجها واصحاب زوجها وحزنها وفرحها وهمها وسرورها وتفرغ كل ما في صدرها حتى لا يبقى سر من اسرارها — ولو كان متعلقا بالفراش — الا وقد اخبرت به

هذا اذا كانت المرأة محبة لزوجها. أما اذا كانت لا تميل لزوجها أو كانت غير متزوجة فأكرر سؤالي بماذا تشتغل

حينئذ، أما الاولى فانها تفتكر في طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه . أما الثانية فاعظم همها ان تشتغل كذلك بالبحث عن زوج اياً كان ولا تضيع وقتها فى حسن انتقاء الرجل الذي يصح ان يكون لها زوجا فانها انما تطلب رجلا . ومن البديهي ان المرأة التي يكون هذا حالها ان كانت فاسدة الاخلاق ووجدت فرصة لا تتأخر عن انتهازها ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد ان تقدم له افضل شيء لديها وهو نفسها

وعلى خلاف ذلك يكون امر النساء المتعلمات. اذا جرى القدر عليهن بامر مما لا يحل لهن لم يكن ذلك الا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام باحوال المحبوب وشمائله وصفاته فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت وهي تحاذر ان تضع ثقتها في شخص لا يكون اهلا لها ولا تسلم نفسها الا بعد مناضلة تختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الامزجة . وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف وتخفي ما في نفسها عن اخص الناس بها

والمعول في كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الاخلاق

التي نشأت عليها المرأة في تربيتها الابتدائية . فان اعتادت على
ان تشغل اوقاتها بالمطالعة ومزاولة الاعمال المنزلية بين اهل
وعشيرة رأت فيهم اسوة الجد والاستقامة وغاب من بينهم
كل ما يؤثر في مشاعرها اثراً غير صالح او يهيج حسها الى امر
غير لائق وتعودت على ان تقيم من عقلها حاكماً على قواها الحسية
كان من النادر ان تحيد عن الطريق المستقيم وان تلقي بنفسها
في غمرات الشهوات التي لا تسلم مهما كانت من الخطر
والعذاب والندم

وبالجملة فانا نرى ان تربية العقل والاخلاق تصون
المرأة ولا يصونها الجهل . بل هي الوسيلة العظمى لان يكون
في الامة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه. وأرى
ان من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل اعمى يقود اعمى
مصيرهما ان يقعا في اول حفرة تصادفهما في الطريق

حجاب النساء

سبق لي البحث في الحجاب بوجه اجمالي في كتاب نشرته باللغة الفرنساوية من اربع سنين مضت رداً على الدوك داركور وبينت هناك اهم المزأيا التي سمح لي المقام بذكرها ولكن لم اتكلم فيما هو الحجاب ولا في الحد الذي يجب ان يكون عليه وهنا اقصد ان اتكلم في ذلك

ربما يتوهم ناظر انني أرى الآن رفع الحجاب بالمرة . لكن الحقيقة غير ذلك . فانني لا ازال ادافع عن الحجاب واعتبره أصلا من أصول الاداب التي يلزم التمسك بها . غير اني اطلب ان يكون منطبقاً على ما جاء في الشريعة الاسلامية. وهو على ما في تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملا بالاحكام حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الامة

والذي أراه في هذا الموضوع هو ان الغربيين قد غلوا في اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها ان تتصون المرأة من التعرض لثارات الشهوة ولا ترضاه عاطفة الحياء. وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الادوات أو متاعاً من المقتنيات وحرمانها من كل المزايا العقلية والادبية التي أعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية . وبين هذين الطرفين وسط سنبينه — هو الحجاب الشرعي — وهو الذي أدعو اليه

اني أشعر أن القاريء الذي سار معي الى هذه النقطة وتبعني فيما دعوته اليه من وجوب تربية النساء ربما يستجمع قواه لمقاومتي فيما أطلب من الرجوع بالحجاب الى الحد الشرعي ويستنجد جميع الاوهام التي خزنها فى ذهنه أجيالاً طويلة ليدافع عن العادة الراسخة الآن . ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها فلا سبيل الى ان تبقى زمناً طويلا

ماذا تفيد الشجاعة والثبات فى المحافظة على بناء آل امره الى الخراب والتهدم وقد انقض اساسه وانحلت مواده ووصل

حاله من الاضمحلال الى انك ترى في كل سنة تمر جزءاً منه ينهار من نفسه ؟ أليس هذا كله صحيحاً ؟ أليس حقاً ان الحجاب في هذه السنين الاخيرة ليس كما كان من عشرين سنة ؟ أليس من المشاهد ان النساء في كثير من العائلات يخرجهن لقضاء حاجاتهن ويتعاملن بانفسهن مع الرجال فيما يتعلق بشؤونهن ويطلبن ترويح النفس حيث يصفو الجو ويطيب الهواء ويصحبن ازواجهن في اسفارهم . ونرى ان هذا التغير حدث في عائلات كانت أشد الطبقات تحرجاً من ظهور النساء ؟ اذا قارنا بين ما نشاهد اليوم وبين ما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيد عنا حيث كان يشين المرأة ان تخرج من بيت زوجها . وان يرى طولها اجنبي وكان اذا عرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلا حتى لا يراها احد من الناس . وحيث كانت ام الرجل او اخته او بنته تستحي ان تجلس معه على مائدة واحدة — اذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلا شك ان هذه العادة آخذة في الزوال من نفسها

وكل من عرف التاريخ يعلم ان الحجاب دور من الادوار التاريخية لحياة المرأة في العالم . قال لاروس تحت كلمة خمار :

«كانت نساء اليونان يستعملن الخمار اذا خرجن ويخفين وجوههن بطرف منه كما هو الآن عند الامم الشرقية » . وقال : ترك الدين المسيحي للنساء خمارهن وحافظ عليه عند ما دخل فى البلاد فكن يغطين رؤوسهن اذا خرجن في الطريق وفي وقت الصلاة . وكانت النساء تستعملن الخمار في القرون الوسطى خصوصاً في القرن التاسع . فكان الخمار يحيط باكتاف المرأة ويجر على الارض تقريباً . واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفف منه الى ان صار كما هو الآن نسيجاً خفيفاً يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن بقي بعد ذلك بزمن فى اسبانيا وفى بلاد امريكا التي كانت تابعة لها»

ومن هذا يرى القارئ ان الحجاب الموجود عندنا ليس خاصاً بنا ولا ان المسلمين هم الذين استحدثوه . ولكنه كان عادة معروفة عند كل الامم تقريباً ثم تلاشت طوعاً لمقتضيات الاجتماع وجرياً على سنة التقدم والترقي . وهذه المسألة المهمة يلزم البحث فيها من جهتها الدينية والاجتماعية :

١

الجهة الدينية

لو ان فى الشريعة الاسلامية نصوصاً تقضي بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب عليّ اجتناب البحث فيه ولما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة في ظاهر الامر لان الاوامر الالهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولا مناقشة لكننا لا نجد نصاً فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة وانما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الامم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت فى الناس باسم الدين والدين براء منها . ولذلك لا نرى مانعاً من البحث فيها بل نرى من الواجب ان نلم بها ونبين حكم الشريعة فى شأنها وحاجة الناس الى تغييرها

جاء فى الكتاب العزيز :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم .

ذلك أزكى لهم . ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو أخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن »

أباحت الشريعة في هذه الآية للمرأة ان تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الاجنبي عنها غير انها لم تسم تلك المواضع وقد قال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها الى ما كان معروفاً فى العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على ان الوجه والكفين مما شمله الاستثناء فى الآية ووقع الخلاف بينهم فى أعضاء أخرى كالزراعين والقدمين . جاء فى بن عابدين : « وعورة الحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل فى الاصح خلا الوجه والكفين والقدمين على المعتمد . وصوتها على الراجح وزراعيها

على المرجوح وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة كمسه وان أمن الشهوة لانه أغلظ ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة كما ياتي فى الحظر . ولا يجوز النظر اليه بشهوة كوجه أمرد . فانه يحرم النظر الى وجهها ووجه الامرد اذا شك فى الشهوة . أما بدونها فيباح ولو جميلا»(١)

وذكر فى كتاب الروض فى المذهب الشافعي : «نظر الوجه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز . ويجوز نظر وجه المرأة عند المعاملة وعند تحمل الشهادة وتكلف كشفه عند الاداء » (٢)

وجاء فى تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق لعثمان بن على الزيلعي : « وبدن الحرة عورة الا وجهها وكفها وقدميها لقوله تعالى « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها» والمراد محل زينتهن وما ظهر منها الوجه والكفان . قاله بن عباس وبن عمر . واستثنى فى المختصر الاعضاء الثلاثة للابتلاء بابدائها لانه عليه الصلاة والسلام نهي المحرمة عن لبس القفازين والنقاب . ولو

---

(١) صحيفة ٣٣٦ جزء ١ (٢) صحيفة ١٠٩ و ١٠٤ جزء ٢

كان الوجه والكفان من العورة لما حرم سترهما بالمخيط . وفى القدم روايتان والاصح انها ليست بعورة للابتلاء بابدائها » (١)

وحكم الوجه والكفين وانها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكية والحنابلة . ولا نطيل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المذهبين

ومما يروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ان أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فقال لها يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وهذا وأشار الى وجهه وكفيه » .
وورد أيضاً في كتاب حسن الاسوة للسيد محمد صديق حسن خان بهادر : « وانما رخص للمرأة فى هذا القدر لأن المرأة لا تجد بداً من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والزواج . وتضطر الى المشي فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن » (٢)

خولت الشريعة للمرأة ما للرجال من الحقوق وألقت

---

(١) صحيفة ٩٦ جزء ٣ (٢) صحيفة ٩٢

عليها تبعة أعمالها المدنية والجنائية فللمرأة الحق في ادارة أموالها والتصرف فيها بنفسها . فكيف يمكن لرجل ان يتعاقد معها من غير ان يراها ويتحقق شخصيتها ؟

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة مغلفة من رأسها الى قدميها أو تقف من وراء ستار أو باب ويقال للرجل ها هي فلانة التي تريد ان تبيعك دارها أو تقيمك وكيلا فى زواجها مثلا . فتقول المرأة بعت أو وكلت ويكتفى بشهادة شاهدين من الاقارب أو الاجانب على انها هي التي باعت أو وكلت والحال انه ليس فى هذه الاعمال ضمانة يطمئن لها أحد . وكثيراً ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير في مثل هذه الاحوال فكم رأينا ان امرأة تزوجت بغير علمها وأجرت أملاكها بدون شعورها . بل تجردت من كل ما تملكه على جهل منها . وذلك كله ناشيء من تحجبها وقيام الرجال دونها يحولون بينها وبين من يعاملها

كيف يمكن لامرأة محجوبة ان تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة ان تقوم بخدمة منزل فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة ان تدير

تجارتها بين الرجال، كيف يتسنى لزراعة محجوبة ان تفلح أرضها ..وتحصد زرعها ، كيف يمكن لعاملة محجوبة ان تباشر عملها اذا أجرت نفسها للعمل فى بناء بيت أو نحوه؟

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الانساني ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه فى الوصول اليه . ووضع للتصرف فيه حدوداً تتبعها حقوق . وسوى فى التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجال والمرأة من هذا النوع .ولم يقسم الكون بينهما قسمة أفراز.ولم يجعل جانباً من الارض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن وجانباً للرجال يعملون فيه فى عزلة عن النساء . بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين شائعاً تحت سلطة قواهما بلا تمييز — فكيف يمكن مع هذا لامرأة ان تتمتع بما شاء الله ان يتمتع به مما هيأها له بالحياة لواحقها من المشاعر والقوى وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال اذا حظر عليها ان تقع تحت أعين الرجال الا من كان من محارمها ؛ لا ريب ان هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل.لهذا رأينا أن الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب

الطبقات من المسلمين كما نشاهده في الخادمات والعاملات وسكان القرى حتى من أهل الطبقة الوسطى بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى: والكل مسلمون بل قد يكون الدين امكن فيهم منه في أهل المدن !

اذا وقفت المرأة فى بعض مواقف القضاء خصما أو شاهدا كيف أنه يسوغ لها ستر وجهها ؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم أنفسهم غافلون عما يهم في هذه المسئلة متساهلون فى رعاية الواجب فيها . فهم يقبلون أن تحضر المرأة أمامهم مستترة الوجه وهي مدعية أو مدعى عليها أو شاهدة وذلك منهم استسلاما للعوائد . وليس يخاف ما فى هذا التسامح من الضرر الذي يصعب استمراره فيما أظن. ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما فى ذلك من سهولة الغش . كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه أن يعرف تلك التي تخاصمه وله في ذلك فوائد كثيرة من اهمها صحة التمسك بقولها. ولا أظن إنه يسوغ للقاضي أن يحكم على شخص مستتر الوجه ولا أن يحكم له. ولا أظن أنه يسوغ له أن يسمع شاهدا كذلك. بل أقول أن اول واجب عليه أن يتعرف وجه الشاهد والخصم

خصوصاً في الجنايات. والا فأي معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده؟ وماذا تفيد معرفة هذه الامور كلها اذا لم يكن معروفاً بشخصه؟

والحكمة في ان الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة كما مر ظاهرة. وهي تمكن القاضي من التفرس في الحركات التي تبدو على الوجه والعلامات التي تظهر عليه فيقدر الشهادة بذلك قدرها

لا ريب ان ما ذكرنا من مضار التحجب يندرج في حكمة أباحة الشرع الاسلامي لكشف المرأة وجهها وكفيها — ونحن لا نريد أكثر من ذلك

واتفق أئمة المذاهب أيضاً على أنه يجوز للخاطب أن ينظر الى المرأة التي يريد أن يتزوجها. بل قالوا بندبه عملا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال لاحد الانصار: — وكان قد خطب امرأة — «أنظرت اليها» قال لا — قال: «أنظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما»

هذه هي نصوص القرآن وروايات الاحاديث وأقوال أئمة الفقة كلها واضحة جلية في أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف

وجهها وكفيها وذلك للحكم التي لا يصعب ادراكها على كل من عقل

هذا حكم الشريعة الاسلامية كله يسر لا عسر فيه لا على النساء ولا على الرجال . ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفي ما فيه من الحرج عليهما فى المعاملات والمشقة فى اداء كل منهما ما كلف به من الاعمال سواء كان تكليفاً شرعياً أو تكليفاً قضت به ضرورة المعاش

أما دعوى ان ذلك من آداب المرأة فلا اخالها صحيحة لانه لا أصل يمكن ان ترجع اليه هذه الدعوى . وأى علاقة بين الادب وبين كشف الوجه وستره ؟ وعلى أي قاعدة بني الفرق بين الرجل والمرأة ؟ أليس الادب فى الحقيقة واحداً بالنسبة للرجال والنساء وموضوعه الاعمال والمقاصد لا الاشكال والملابس؟

وأما خوف الفتنة الذي نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسئلة تقريباً فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقديره ولا هن مطالبات بمعرفته وعلى من يخاف الفتنة من الرجال ان يغض بصره كما انه على

من يخافها من النساء ان تغض بصرها . والاوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل من الفريقين بغض البصر على السواء . وفى هذا دلالة واضحة على ان المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها

عجباً ! لم لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء اذا خافوا الفتنة عليهن؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل اعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه . واعتبرت المرأة أقوى منه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال . ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً خوف أن ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق ؟ اذ زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بأن المرأة أكمل استعداداً من الرجل - فلم توضع حينئذ تحت رقه فى كل حال؟ فان لم يكن هذا الاعتبار صحيحاً فلم هذا التحكم المعروف ؟

على أن البرقع والنقاب مما يزيد فى خوف الفتنة . لان
هذا النقاب الابيض الرقيق الذي تبدو من ورائه المحاسن وتختفي
من خلفه العيوب. والبرقع الذي يختفي تحته طرف الانف والفم
والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والخدود
والاصداغ وصفحات العنق- هذان الساتران يعدان فى الحقيقة
من الزينة التي تحت رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل
خفي بعد الافتتان بكثير ظهر . ولو أن المرأة كانت مكشوفة
الوجه لكان فى مجموع خلقها ما يرد فى الغالب البصر عنها

ليست أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة.
بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات فى أثناء مشيها
وما يبدو من الافاعيل التي ترشد عما فى نفسها. والنقاب والبرقع
من أشد أعوان المرأة على اظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك
الرغبة . لانهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب او
بعيد فيقول فلانة او بنت فلان او زوجة فلان كانت تفعل
كذا. فهي تأتي كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع
وهذا النقاب. اما لو كان وجهها مكشوفا فان نسبتها الى عائلتها
او شرفها فى نفسها يشعرانها الحياء والخجل ويمنعانها من ابداء

حركة او عمل يتوهم منه ادنى رغبة منها فى استلفات النظر اليها

والحق ان الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية لا للتعبد ولا للادب بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام والباقية بعده . ويدلنا على ذلك ان هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الاسلامية وانها لم تزل معروفة عند اغلب الامم الشرقية التي لم تتدين بدين الاسلام .

انما من مشروعات الاسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو صريح الآية وليس فى ذلك شيء من التبرقع والانتقاب

هذا ما يتعلق بكشف الوجه واليدين . اما ما يتعلق بالحجاب بمعنى قصر المراة فى بيتها والحظر عليها ان تخالط الرجال فالكلام فيه ينقسم الى قسمين :ما يختص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم . وما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين . ولا اثر فى الشريعة لغير هذين القسمين

اما القسم الاول فقد ورد فيه ما يأتي من الآيات :

« يا ايها اللذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم . واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب .

ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا من بعده أبداً . ان ذلكم كان عند الله عظيماً »

« يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي فى قلبه مرض . وقلن قولا معروفاً وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلة الاولى »

ولا يوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أي مذهب كانت ولا في كتب التفاسير في ان هذه النصوص الشريفة هي خاصة بنساء النبي صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب وبين لنا سبب هذا الحكم وهو انهن لسن كأحد من النساء . ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين (١)

وأما القسم الثاني فغاية ما ورد فى كتب الفقه عنه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم نهي فيه عن الخلوة مع الاجنبي وهو :

(١) صحيفة ١٢٦ من كتاب حسن الاسوة

« لا يخلون رجل بامرأة الا مع ذي محرم » قال ابن عابدين: ,, الخلوة بالاجنبية حرام الا للازمة مديونة هربت ودخلت خربة أو كانت عجوزاً شوهاء أو بحائل – وقيل الخلوة بالاجنبية مكروهة كراهة تحريم. وعن أبي يوسف ليست بتحريم ،، (١)

وقال : « ان الخلوة المحرمة تنتفي بالحائل وبوجود محرم أو امرأة ثقة قادرة – وهل تنتفي أيضاً بوجود رجل آخر لم تراه ؟ (٢)

ربما يقال ان ما فرضه الله على نساء نبيه يستحب اتباعه لنساء المسلمين كافة – فنجيب أن قوله تعالى « لستن كأحد من النساء » يشير الى عدم الرغبة في المساواة في هذا الحكم وينبهنا الى ان في عدم الحجاب حكماً ينبغي لنا اعتبارها واحترامها وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الاسوة. وكما يحسن التوسع فيما فيه تيسير أو تخفيف كذلك لا يجمل الغلو فيما فيه تشديد وتضييق أو تعطيل لشيء من مصالح الحياة وعلى هذا وردت آيات الكتاب المبين . قال تعالى : ,, يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ،، . وقال : ,, ما جعل عليكم في

(١) صحيفة ٣٢٣ جزء خامس (٢) صحيفة ٣٢٤ جزء خامس

الدين من حرج ».. وقال أيضاً: « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم »..ولو كان اتباع الأسوة مطلوباً في مثل هذه الحالة لما رأينا احد الخلفاء المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجري في عائلته على ما يخالف الحجاب. واستدل على ذلك بذكر الواقعة الآتية :

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بواقعة حربية . فلما وصل ذلك الرجل الى بيت عمر قال : « فاستأذنت وسلمت فأذن لي فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكيء على وسادتين من ادم محشوتين ليفاً فنبذ الي باحديهما فجلست عليها واذا بهو في صفة فيها بيت عليه ستير فقال: « يا ام كلثوم غداءنا فاخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق. فقال : « يا ام كلثوم الا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا ؟ » قالت : « اني استمع عندك حس رجل » . قال : « نعم ولا اراه من اهل البلد » . قالت فذلك حين عرفت انه لم يعرفني ولكن لو اردت ان اخرج الى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته » ـ قال : « او ما يكفيك ان

يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر،،ـ فقال كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا،،(١)
وفضلاً عن كون الشرع لا يوجب ذلك الحجاب فانه مجرد عن الفائدة بل فيه مضرات شتى نأتي على بيانها في المبحث الآتي:

٢

الجهة الاجتماعية

انا نطالب تخفيف الحجاب ورده الى احكام الشريعة الاسلامية الا لاننا نميل الى تقليد الامم الغربية في جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد أو للتعلق بالجديد لانه جديد . فانا نتمسك بعوائدنا الاسلامية ونحترمها ونرى أنها مزاج الأمة تماسك به أعضاؤها ولسنا ممن ينظر اليها نظرهُ الى اللابس يخلع ثوباً كل يوم ليلبس غيره . وانما نطلب ذلك لاننا نعتقد أن لرد الحجاب الى أصله الشرعي مدخلا عظيما في حياتنا المعاشية. لسنا في مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أو منافرته . وانما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة أو ما به قوام حياتنا

(١) صحيفة ٢٧١٦ تاريخ الطبري جزء خامس

كلامنا الآن في هل يلزمنا أن نعيش ونحيي أو نقضي على أنفسنا بأن نموت ونفنى ؟ هل علينا أن نهتز مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه آباءنا والناس من حولنا يتسابقون الى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهدة القوة ويمرون علينا سراعاً ونحن شاخصون اليهم اما غير شاعرين بموقفنا واما شاعرين ولكننا حيارى ذاهلون أو من الواجب علينا ان ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا . كيف تقووا وضعفنا . كيف سعدوا وشقينا ثم نرجع ابصارنا كرة ثانية في ديننا وما كان عليه اسلافنا الصالحون. ثم نقتدي بهم في استماع القول واتباع أحسنه وانتقاد الفعل والاخذ بأفضله ونسير في طرق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين؟ ذلك هو الامر الخطير الذي وجهنا اليه نظرنا

ها هي مسئلة الحجاب مسئلة من أهم المسائل ولها مكان عظيم في شؤون الأمة اذا ترك القاريء نفسه لعواطفه واستسلم الى عوائده ظهر له الحجاب في مظهر حسن لانه ألفه في صغره ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مالوفة له . ثم أنه ورثه من آبائه وأجداده فلا يستغربه بل يميل اليه

ميلا غريزياً ليس للعقل فيه مدخل وانما هو حركة ميكانيكية ليس الا وأما اذا نزع من نفسه العوامل التي أحدثت فيه تلك العواطف وخلع ما البسه اياه أسلافه من أردية الوراثة وبحث في المسئلة من جميع جهاتها بحيث من لم يتأثر الا بالتجربة التي تجري في الوقائع الصحيحة وحصل لنفسه رأياً من ملاحظاته الشخصية . وكان ممن تنجذب نفسه للحق وتنبعث الى السعي للوقوف عليه وتأييده لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع . وكان لا يغش نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين وانما يسمع صوت وجدانه السليم ويرجحه على كل هوى سواه مهما كانت زوجته من التمكن فيمن حوله من الناس — فعند ذلك يرى ان المرأة لا تكون ولا يمكن ان تكون وجوداً تاماً الا اذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معاً ونمت ملكاتها الى اقصى درجة يمكنها ان تبلغها. ويرى ان الحجاب على ما الفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الامة وتقدمها

بينا عند الكلام على تربية المرأة ما لها من المزايا الجليلة والاثار الحسنة التي تترتب عليها في شؤونها نفسها وشؤون بيتها

وفي الاجتماع الذي هي فيه . وذكرنا ان من اكبر اسباب ضعف الأمة حرمانها من اعمال النساء وان تربية الطفل لا تصلح الا اذا كانت امه مرباة . وقررنا ان الولد ذكراً كان او انثى لا يملك صحة ولا خلقاً ولا ملكة ولا عقلاً ولا عاطفة الا من طريقين : الوراثة والتربية . واستدللنا على ان الولد يرث من امه قدر ما يرث من والده على الاقل . وان تأثير الأم في تربية الطفل بعد ولادته اعظم من تأثير ابيه . ونريد ان نبرهن هنا على ان تربية الام نفسها لا يمكن ان تتم اذا استمر حجاب النساء على ما هو عليه الان حتى اذا انتهى القاريء من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض وكيف ان اصغرها يتوقف عليه اعظمها :

اذا اخذنا بنتاً وعلمناها كل ما يتعلمه الصبي في المدارس الابتدائية وربيناها على اخلاق حميدة ثم قصرناها في البيت ومنعناها عن مخالطة الرجال فلا شك انها تنسى بالتدريج ما تعلمته وتتغير اخلاقها على غير شعور منها وفي زمن قليل لا نجد فرقاً بينها وبين اخرى لم تتعلم اصلاً . ذلك لان المعارف التي يكسبها الانسان وهو في سن الصبا لا يحيط بدقائقها ومناشئها ولذلك

لا يكون علمه فيها علماً تاماً كاملا . وانما يتم له شيء من ذلك اذا بلغ سن الرجولية واستمر على مزاولة العمل والاشتغال. فالصبي يحفظ اسماء الاشياء أكثر مما يفهم معانيها وأكبر فائدة يستفيدها في هذا الطور من التعليم انما هي التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة. فاذ وقف سير التعليم في هذا السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئاً فشيئاً وكان مامضى من الوقت في التعليم زمناً ضائعاً

ولما كان بين السن الذي تحجب فيه المرأة — وهو مابين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها هو السن الذي يبتدىء فيه الانتقال من الصبا الى الرجولية وتظهر فيه حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل الى اختبار العالم والبحث في الحياة وماتستدعيه وهو السن الذي تظهر فيه الملكات وتظهر الميول والوجدانات. وهو السن الذى يتعلم فيه الانسان نوعاً آخر من العلم أنفس مما تعلمه في المدارس وهو علم الحياة وطريق تحصيل ذلك العلم انما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف أخلاقهم وفي هذا السن يبتديء الانسان يعرف شعبه وملته ووطنه ودينه وحكومته . وفي هذا السن يبتديء استعداد كل شخص

وميله وكفاءته في الظهور فيندفع الى الاعمال اندفاع الماء في المنحدرات . وهو سن الآمال والرغائب والنشاط فان حجبت فيه الفتاة وانقطعت عن هذا العالم بعد أن كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة وقف نموها بل رجعت القهقرى وفقدت كل ما كان يزين نفسها ونسيت كل معارفها وخابت كل مساعيها وضاعت آمالها وآمال الناس فيها : ولا ذنب عليها في ذلك فهي عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقي والكمال

ربما يقال ان في طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها وتتم دراستها في بيتها وهو وهم باطل. فان الرغبة في اكتساب العلم والتشوق لاستطلاع ما عليه الناس في احوالهم واعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل ما يستميل النفس الى المطالعة والدرس لا يتوفر للمرأة مع حجابها . ذلك لان الحجاب يحبس المرأة في دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف الا ما يقع فيها من سفاسف الحوادث ويحول بينها وبين العالم الحي وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شيء وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفاً مقلوباً. أما اذا استمرت

المواصلات بينها وبين العالم الخارجي فانها تكتسب بالنظر في حوادثه وتجربة ما يقع فيه من معارف غزيرة تنبث فيها من المخالطات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم في جميع مظاهر الحياة . وقد يكفي في اعانتها على كسب ذلك كله والانتفاع منهما حصلته بالتعلم من المعارف الاولى وربما يمكنها ان تستغني عن تعلم تلك المعارف الاولى اذا حسنت الفطرة وجادت القريحة

وعلى فرض ان المرأة يمكنها في احتجابها ان تستكمل ما نقص منها علماً وأدباً بقراءة الكتب فمن البديهي ان كل ما تحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل . ولو عاملنا اخوتها الصبيان كما نعاملها وحجبناهم في البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشر لكانت النتيجة واحدة . بل لو اخذنا رجلا بلغ الاربعين من عمره وحجبناه عن العالم والزمناه ان يعيش بين أربعة جدران وسط النساء والاطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجي في قواه العقلية والادبية ولا بد ان يأتي يوم يجد فيه نفسه مساوياً لهم . فاذاً يكون من الخطأ أن نتصور أننا متى علمنا بناتنا جاز لنا أن نحجبهن متى بلغن

سناً خصوصاً وان مجرد ذلك التعليم الاول يكفي في التوقي من الضرر . لان الضرر في الحجاب عظيم وهو ضياع ما كسبته بالتعليم وحرمانهن من الترقي في مستقبل العمر والامر في ذلك واضح لا يحتاج الى دليل . ويكفينا ان نرجع الى انفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه في الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا اننا كنا اشبه بالاطفال لا نكاد نعلم شيئاً من العالم ولا نعرف للحياة قيمة ولا نميز كل التمييز ما لنا وما علينا ولا نمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة في مجاهدة انفسنا. وان اكبر عامل له اثر في تكميلنا هو استمرار تعلمنا وتربية عقولنا ونفوسنا استمراراً لا انقطاع معه . وان ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث

وفي الحقيقة ان تربية الانسان ليس لها سن معين تنقطع بعده ولا حد معروف تنتهي عنده . فهي لا تنال بحفظ مقدار من العلوم والمعارف يجد الانسان نفسه في اكتسابه في سنين معدودة ثم يقضي حياته بعد ذلك في الراحة

التربية ليست ذلك الشيء البسيط الذي يفهمه عامة الناس حيث يتصورون انها عبارة عن تخزين كمية من المعارف المقررة

في بروجرامات المدارس ثم امتحان ثم شهادة ليس بعدها الا البطالة والجمود . وانما التربية هي العمل المستمر الذي تتوسل به النفس الى طلب الكمال من كل وجوهه. وهذا العمل لا بد منه في جميع أدوار الحياة حيث يبتدىء من يوم الولادة ولا ينتهي الا بالموت

واذا أراد القارىء أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب على وجه لا يبقي للريب معه مجال فما عليه الا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات في الدكان لم يسبق لها تعليم . فانه يجد الاولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب البيانو ولكنها جاهلة بأطوار الحياة بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها. وأن الثانية مع جهلها قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوي والحوادث التي مرت عليها وأن كل ذلك قد أفادها اختباراً عظيما : فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى

ومن هذا نرى اغلب نساء نصاري الشرق وان لم يتعلمن في المدارس اكثر مما يتعلمه بعض بناتنا الآن فهن يعرفن

لوازم الحياة لكثرة ما رأين وسمعن باختلاطهن بالرجال فقد ورد على عقولهن معان وافكار وصور وخواطر غير ما استفدنه من الكتب فارتفعن بفضل هذا الاختلاط الى مرتبة أعلى من المرأة المسلمة المواطنة لهن مع انهن من جنس واحد واقليم واحد

نرى في المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعي ما يؤهلها لان تكون مساوية لغيرها من الامم الاخرى لكنها اليوم في حالة انحطاط شديد . وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها

وقد جرنا حبنا لحجاب النساء الى افساد صحتهن فألزمناهن القعود في المساكن وحرمناهن الهواء والشمس وسائر انواع الرياضة البدنية والعقلية .

ليس فينا من لا يعرف ان من النساء من لا يفارقن بيوتهن لا ليلا ولا نهاراً بل يلازمنها ولا يرين لهن شريكا في الوجود الا جارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتنصرف عنها . ولا يرين ازواجهن الا عند النوم لانهم يقضون نهارهم في اشغالهم ويقضون الجزء العظيم من ليلهم عند جيرانهم

او في الاماكن العمومية

ليس فينا من لا يعرف ان نساء كثيرة فقدن صحتهن في هذه المعيشة المنحطة وفي هذا السجن المؤبد . وانهن عشن عليلات الجسم والروح ولم يذقن شيئاً من لذة هذه الحياة الدنيا

لذلك كان اغلب نسائنا مصاباً بالتشحم وفقر الدم ومتى ولدت المرأة مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزاً وهي في ريعان شبابها : كل ذلك منشأه خوف الرجال من الاخلال بالعفة !

على ان القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة الفساد قول لا يمكن الاستدلال عليه لانه لم يقم أحد الى الآن باحصاء عام يمكن ان نعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة في البلاد التي تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفي البلاد الاخرى التي تتمتع فيها بحريتهن . ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلا على الاثبات أو النفي في المسئلة لان ازدياد الفساد في البلاد ونقصه مما يرتبط بامور كثيرة ليس الحجاب اهمها ومن المعروف ان لطرق معيشة الامة ومزاجها واقليمها

وآدابها وتربيتها دخلا عظيماً في فساد أخلاقها وصلاحها. ولهذا نرى الفساد يختلف في بلاد أوروبا بين بلد وآخر اختلافاً ظاهراً ونرى ايضاً مثل هذا الاختلاف بين البلاد التي لا تزال فيها عادة الحجاب باقية. بل نرى اختلافاً كبيراً بين زمن وزمن في بلد واحد. والتجارب ترشد الى امر يمكن أخذه دليلا على ان الاطلاق أدنى بالنساء الى العفة من الحجاب فمن المشاهد الذي لا جدال فيه أن نساء أمريكا هن أكثر نساء الارض تمتعاً بالحرية وهن اكثرهن اختلاطاً بالرجال حتى أن البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة فتقعد البنت بجانب الصبي لتلقي العلوم. ومع هذا يقول المطلعون على أحوال أمريكا أن نساءها أحفظ للاعراض وأقوم أخلاقاً من غيرهن وينسبون صلاحهن الى شدة الاختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء في جميع أدوار الحياة. ومن المشاهد الذي لا نزاع فيه ايضاً ان نساء العرب ونساء القرى المصرية مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا تقريباً أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائي لم يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس في المفاسد. وهذا مما يحمل على

الاعتقاد بأن المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة. والسبب فى ذلك أن الاولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم فاذا رأت رجلا أيا كان لم يحرك منظره فيها شيئاً من الشهوة. بل لو عرض عليها شيء من هذا فانما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات في خلوات كثيرة يحدث فيها ما قد يشعر كل واحد منهما بانجذاب الى الآخر: وهذا هو ما منعته الشريعة وبينا امتناعه فيما سبق. أما الثانية فمجرد وقوع نظرها على رجل يحدث فى نفسها خاطر اختلاف الصنف من غير شعور ولا تعمد ولا نية سيئة. وانما هو أثر منظر الرجل الاجنبي لانه قد وقر فى نفسها أن لا تراه ولا يراها فمجرد النظر اليه كاف فى أثار هذا الخاطر

وقد شاهدت مراراً كما شاهد غيرى هذا الاثر عينه فى الرجال. فرأيت أن الرجل الذي لم يتعود الاختلاط بالنساء ان لم يغلبه سلطان التهذيب القوي لا تملك نفسه اذا جلس بينهن فلا تشبع عينه من النظر اليهن ومن التأمل في محاسنهن وينسى فى ذلك كل أدب ولياقة وربما طلب الوسائل للامستهن بيده أو مماستهن بكفته ويندفع الى أقوال وأعمال تشمئز

منها نفوس الحاضرين كأنه يظن — بل هو يظن بالفعل — انه لا معنى لاجتماع الرجل مع المرأة فى مكان واحد الا أن يتمتع كل منهما بشهوة مع الآخر بخلاف الرجل الذي اعتاد على مخالطة النساء فانه لا يكاد يجد فى نفسه أثراً من رؤيتهن أكثر مما يجده عند رؤية الرجل ولا يشعر بأدنى اضطراب في حواسه ولا فى مشاعره . فمن ألزم لوازم الحجاب أنه يهيء الذهن في الرجال وفى النساء معاً لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت. وهذا يوضح لنا السبب فيما نشاهده كل يوم من أن المرأة اذا رأت رجلاً فى الطريق أو دعتها الضرورة لمخاطبته تتصنع فى حركاتها وصوتها ما تظن أنه يروق في عين الرجل — والرجل كذلك

قد شاهدت وشاهد كل انسان ما يخالف ذلك في بلاد أوروبا وفي الاستانة وفى القرى المصرية وبين الاعراب فى البادية حيث يمر الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفاً لكتف ولا يلتفت أحدهم الى الاخر :

ولا ريب ان استلفات الذهن دائماً الى اختلاف الصنف من أشد العوامل فى أثارة الشهوة.

وبديهي ان المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتها وتصون

نفسها عما يوجب العار وهي مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والاجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة. فان عفة هذه قهرية أما عفة الاخرى فهي اختيارية والفرق كبير بينهما. ولا أدري كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الاقفال وارتفاع الجدران ؟

أيقبل من مسجون دعواه أنه رجل طاهر لانه لم يرتكب جريمة وهو في الحبس؟ فان كانت نساؤنا محبوسات محجوبات فكيف يمكنهن أن يتمتعن بفضيلة العفة . وما معنى أن يقال أنهن عفيفات ؟ أن العفة هي خلق النفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها . ولعل التكليف الالهي انما يتعلق بما يقع تحت الاختيار لا بما يستكره عليه من الاعمال. فالعفة التي تكلف بها النساء يجب أن تكون من كسبهن ومما يقع تحت اختيارهن لا أن يكن مستكرهات عليها والا فلا ثواب لهن في مجرد الكف عن المنكر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد »

والحقيقة أننا نعمل عمل من يعتقد أن النساء عندنا لسن أهلاً للعفة . أليس من الغريب أن لا يوجد رجل فينا يثق

بامرأة أبداً مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن؟ أيليق أن لا نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وان نسيء الظن بهن الى هذا الحد ؟

اني أسأل كل انسان خالي الغرض : هل هذه المعاملة يليق أن يعامل بها انسان له من خاصة الانسان ما لنا ؟ فهو مثلنا له روح ووجدان وقلب وعقل وحواس. وهل سوء الظن في المرأة الى هذا الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟

والعاقل يرى أن الاحتياط الذي يتخذه الرجال لصيانة النساء عندنا مهما بلغ من الدقة لا يفيد شيئاً ان لم يصل الرجل الى امتلاك قلب امرأته . فان ملكه ملك كل شيء منها وان لم يملكه لم يملك منها شيئاً . ذلك لانه ليس في استطاعة رجل أن يراقب حركات امرأته وسيرها فى كل دقيقة تمر من الليل والنهار

متى خرج أحدنا من منزله أو سمح لامرأته ان تخرج بسبب من الاسباب فعلى م يتكل أن لم يكن على صيانتها

وحفظها نفسها بنفسها ؟ ثم ماذا يفيد الرجل أن يملك جسم امرأته وحده اذا غاب عنه قلبها ؟ أيستطيع أن يمنعها أن تتصرف فيه وتبذله لاي شخص تريد ؟ فاذا رأت امرأة من الشباك رجلا فأعجبها ومالت اليه بقلبها وودت أن تواصله لحظة أفلا يعد هذا في الحقيقة من الزنا ؟ ألم يتمزق حجاب العفة فى هذه اللحظة ؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمي عفة ؟ نعم ان الشرائع لا تعاقب ولا تقيم الحد على زنا العين والقلب لان العقوبات والحدود لا سلطان لها على الخواطر والقلوب . ولكن فى نظر أهل الادب والتقوى لا عبرة للبعد بين الاجساد اذا تواصلة الارواح واجتمعت القلوب .

ومع ذلك ما الذي فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجري فى داخل البيوت مما ينافي العفة ويخل بالشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والاقفال سريان الفساد الى ما وراء تلك الحجب ؟ كلا

ربما يقول قائل أن ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء أكثر مما كنا نسمعه سابقاً وأن الاشاعات عن الفساد أشد

انتشاراً . بل ربما كان الفساد فى الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلا ولا منشأ لذلك الا رقة الحجاب . فالحالة القديمة على ما فيها كانت اصون للاعراض واحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التي طرأت على النساء — فنجيب عن ذلك باننا لا ننكر أن بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معاً وجدت سبيلا من تخفيف الحجاب الى تعارف بعضها ببعض واتيان ما تميل اليه من المنكر . بل نزيد عليه أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها الى الان — والنفوس على ما هي عليه — لعمت البلوى وازداد الفساد انتشاراً

غير أن السبب فى ذلك ليس هو تخفيف الحجاب . بل هو راجع الى أمور كثيرة يجمعها الجهل وسوء التربية

فسوء التربية هو علة الخفة والطيش . وهو الذي يسهل على امرأة ذات مكانة في بيتها وقومها أن تطيل نظرها الى شاب يمر في طريقها . وسوء التربية هو الذي يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به اليها . وسوء التربية هو الذي يدفع بها الى الاتفاق معه على التلاقي بل والتواصل

قبل أن يدور كلام بينه وبينها . وانما أركان عقد ذلك الاتفاق هي نظرات واشارات لا تفصح عن خلق من الاخلاق ولا عن ملكة من الملكات ولا عن درجة من العرفان ولا تدل على حالة نفسية ولا عقلية ولا جسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين

سوء التربية هو الذي يخرق كل حجاب ويفتح على المرأة من الفساد كل باب . وهو الذي يخشى معه أن تسري العدوى من امرأة الى امرأة ومن طبقة الى طبقة . فقد نرى أن المحجبات مهما بالغن في التحجب لا يستنكفن أن يختلطن بنساء أحط منهن في الدرجة وأبعد عن التصون والعفة. فسيدة المنزل لا ترى بأسا في مخالطة زوجة خادمها بل قد تأنس بالحديث معها وسماع ما تنقله اليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها. ولا تأنف التفتح في القول مع الدلالات وبائعات الاقمشة . بل قد يطوح بها الجهل الى الاختلاط بنسوة لا تعرف شيئا من حالهن ولا من أي مكان أتين ولا بأي خلق من الاخلاق تخلقن . وأشنع من هذا كله وأشد منه فعلا في افساد الاخلاق أن نساء من المومسات اللاتي يحملن تذكرة رسمية يدعون في الافراح ويرقصن تحت أعين الامهات والبنات والكبار والصغار

هذا ما يأتى من سوء التربية وهو من أشد العوامل فى تمزيق ستار الادب وليست رقة الحجاب بشيء فى جانب هذا كله

طرقت ديارنا حوادث وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ووجدت علائق بيننا وبينهم علمتنا أنهم أرقى منا وأشد قوة . ومال ذلك بالجمهور الاغلب منا الى تقليدهم فى ظواهر عوائدهم خصوصاً ان كان ذلك ارضاء لشهوة أو اطلاقاً من قيد. فكان من ذلك أن كثيراً من أعليائنا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء وتسامحوا لهن فى الخروج الى المتنزهات وحضور التياترات ونحو ذلك، وقلدهن فى ذلك كثير ممن يليهن وعرض من هذه الحالة بعض فساد فى الاخلاق

تلك حالة طرأت للاسباب التي تقدمت وتبعها من العواقب ما بيناه . ولكن ليس من مصلحتنا بل ولا من المستطاع لنا محو هذه الحالة والرجوع الى تغليظ الحجاب . بل صار من متممات شؤوننا أن نحافظ عليها ونتقي تلك المضار التي نشأت عنها . وذلك هو ما نستطيعه أيضاً

أما انه ليس من مصلحتنا أن نمحو هذه الحالة فلما قدمناه

في مضار الحجاب على الوجه المعروف . وأما أننا لا نستطيع ذلك فلان أسباب هذه الحالة مما فصلناه سابقاً لا تزال موجودة وهي تزداد بمرور الزمان رغماً عنا. ولاننا قد وجدنا من أنفسنا ميلاً الى حسن المعاملة في معاشرة النساء وزين في أنفس الكثير منا حب المجاملة في مرضاتهن ونشأت لهن في قلوب الرجال منزلة من الاعتبار لم تكن لهن من قبل. وأحس النساء بذلك من رجالهن فعددن ما وصلن اليه من الحرية والاطلاق حقاً من الحق وضرورياً من ضروريات المعيشة : فلا يسهل على الرجل أن يقضي على امرأته اليوم بما كان يقضي به من قبل أربعين سنة

والذي يجب علينا هو معالجة المضار التي يظن أنها تنشأ عن تخفيف الحجاب . ولا توجد طريقة انجع في ذلك العلاج الا التربية التي تكون هي الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وبين كل فساد يتوهم في أية درجة وصلت اليها من الحرية والاطلاق .

سيقول معترض أن التربية والتعليم يصلحان أخلاق المرأة واما الاطلاق فربما زاد في فسادها . فنجيب ان الاطلاق

الذي نطالب به هو محدود بحظر الخلوة مع أجنبي .وفي هذا الحظر ما يكفي لاتقاء المفاسد التي لا تتولد الا من الخلوة.أما الاطلاق في نفسه فلا يمكن أن يكون ضاراً أبداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة . لان التربية الصحيحة تكوّن افراداً أقوياء بأنفسهم يعتمدون على انفسهم ويسيرون بأنفسهم . فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره . ومن نقصت تربيته احتاج الى الغير في كل أموره . فالاستقلال في النساء كالاستقلال في الرجال يرفع الانفس من الدنايا ويبعد بها عن الخسائس : لذلك يجب أن يكون هو الغاية التي نطلبها من تربية النساء

حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان في تقدم الرجال في كل زمان ومكان . وهما مطمح آمال كل أمة تسعى الى سعادتها . وهما من أشرف الوسائل لابلاغها من الكمال ما اعدت له . فكيف يمكن لعامل ان يدعي ان لهذين العاملين اثراً آخر سيئاً في انفس النساء؟ ومن زعم ان التربية واستقلال الارادة مما يساعد على فساد الاخلاق في المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التي لا يخلو منها امر من الامور

النافعة في العالم فان لكل نافع ضرراً اذا أسيء استعماله

هذا تعليم الرجال لا يخلو من العيوب الكثيرة وكثير منهم يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره . فهل ذلك يحمل أحداً من الناس على أن يقول أن من الصواب أن لا يعلم الرجال شيئاً خوف استعمال ما يتعلمون فيما يسوءهم أو يسوء غيرهم . وأن من الواجب أن يتركوا في الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لا أظن أن عاقلا يخطر هذا الخاطر بباله . فاذا كان اجماعنا قد انعقد على ان لا خير للرجال فى الجهل والاستعباد . وان لا سبيل لهم الى بلوغ درجات الفضل الا بالعلم وحرية الفكر والعمل . فمالنا نختلف في هذه القضية نفسها اذا عرض ذكر المرأة ؟ وأي فرق بين الصنفين في الفطرة والخلقة؟

والحق انا غالينا في اعتبار صفة العفة في النساء وفي الحرص عليها وفي ابتداع الوسائل لحفظ ما ظهر منها وتفخيم صورتها حتى جعلنا كل شيء فداءها وطلبنا أن يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها . نعم العفة أجمل شيء في المرأة وأبهى حلية تتحلى بها . ولكن العفة لا تغني شيئاً عن بقية الصفات والملكات التي يجب أن تتحلى نفس المرأة بها من كمال العقل وحسن التدبير

والخبرة بتربية الاولاد وحفظ نظام المعيشة في البيت والقيام على كل ما يعهد اليها من الشؤون الخاصة بها . بل نقول ان لهذه الصفات دخلا كبيراً في كمال العفة وفقدان المرأة خصلة من هذه الخصال لاينقص في ضرره وفي الحط من شأنها عن فقدان العفة نفسها

اتفقت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية على أن عقد الزواج وحده هو الذي يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة وان اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع وممقوت. ذلك أمر اقتضاه نظام العشيرة وكمال النفس الانسانية فالعمل على مايخالفه قبيح مذموم بلا ريب. غير أن تلك الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد حظرت اعمالا أخرى وأنزلتها من الشناعة منزلة لا تنحط عن منزلة الخنا . ووضعت عليها عقوبات أشد من العقوبة عليها لانها اعتبرت أن لتلك الاعمال من الضرر بالنظام ما هو أشد من ضرر الزنا . ولنضرب مثلا بجريمة القتل فانها أعظم من جريمة الزنا في نظر الدين والقانون . فلم لم تتخذ للوقاية منها من الوسائل الضارة ما اتخذناه للوقاية من الزنا ؟

انا معرضون في كل ساعة تمر من حياتنا الى مصائب

لا تحصى وهذا لا يمنعنا من أن نتحرك ونقتحم الاخطار في الاسفار لنحصل من رزق الله ما نحتاج اليه . انا نشعر بانواع الجرائم ترتكب من حولنا فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف وغيرها من الجرائم تزعج الساكن وتقلق المطمئن ومع ذلك فانا نحتمل مصائبها ونسلم لحكم القدر فيها ونجتهد في تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة من التربية او ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة . فلم لا يكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التي لا يخلو منها مجتمع انساني ؟ ولم نتخيل انها اشنع وافظع من سواها حتى اتخذنا لمنعها ما لم نتخذه لمنع غيرها

وعلى أي حال فليس من الجائز ان نأتي ما فيه ضرر محقق لنتقي به ضرراً وهمياً . فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع قد يكون وربما لا يكون . اما حجابها ومنعها من التمتع بقواها الغريزية فهو ضرر محقق لاحق بها حتماً . ويا ليته اقتصر عليها ولكنه يتعداها الى كل ما يقع تحت رعايتها

يتوهم احدنا ان امرأته ربما تميل الى غيره ان رفع الحجاب عنها فلذلك يزج بها وراء الابواب ويغلق عليها الاقفال ويظن بذلك انه قد استراح من الوساوس وهو لا يدري ما ربما يأتيه

من . . . حيث لا يدري فلم يفده حرصه شيئاً في الحقيقة . ومع هذا فهو بعمله قد قتل نفساً حية وأفسد نفوساً كثيرة ممن تتولاهم زوجته في بيته في سبيل ما يظنه راحة لنفسه

توهم كثير ممن سبقنا مثل ما توهمنا وحجبوا نساءهم كما نحجب نساءنا بل فاقونا في التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان انفسهم من ناحية زوجاتهم . واني اذكر الآن أغرب طريقة كانت مستعملة عند أعيان اوروبا في القرون الوسطى وهي ما كان يسمى عندهم بنطاق العفة . وهو نطاق من حديد يتصل به حفاظ ولذلك النطاق قفل يكون مفتاحه في جيب الرجل دائماً . ولكن هذا لم يمنع النساء من أن يمنحن عشاقهن مفتاحاً مصطنعاً ثم ما لبث هؤلاء الامم ان ادركوا خطأهم وعرفوا ان ضرر تلك الاوهام اكثر من نفعها . ولما أخذت المعارف تنتشر بينهم شرعوا في قياس اعمالهم المعاشية بمقياس العقل السليم والعلم الصحيح الخالص من شائبة الوهم . وادركوا ان سعادتهم لا تتم بما ينالون من ثمار ذلك الا اذا شاركهم نساؤهم في مساعيهم وعاونهم في لم شعثهم وتكميل نقصهم فعدوهن بالتربية والعلم الى ما أملوا منهن . فافتككن من

أسرهن وتمتعن بحريتهن وسرن مع رجالهن يعاونهم في الحياة ويمدنهم بالرأي في كل أمر . ولست مبالغاً ان قلت ان ما اقامه التمدن الحديث من البناء الشامخ وما وضعه من الاصول الثابتة انما شيد على حجر اساسي واحد هو المرأة

لم يكن ما استفاده الغربيون من تربية نسائهم والتساهل لهن في مخالطتهم قاصراً على المزايا التي اشرنا اليها بل كان لهم مع ذلك فوائد جمة في تدبير المعيشة وتيسر طرق الاقتصاد

تدخل بيت الغربي من اهل الطبقة الوسطى فتجده اتم نظاماً وأكمل ترتيباً واجمل أثاثاً من بيت الشرقي من أهل طبقته . ومع ذلك تجد نفقة الغربي أقل من نفقة الشرقي بكثير

أنظر الى الواحد منا تجد مسكنه لا بد أن يكون الى قسمين قسم للرجال وآخر للنساء . فان أراد أن يبني بيتاً فعليه أن يهيء ما يكفي لبناء بيتين في الحقيقة واذا استأجر بيتاً فهو انما يستأجر في الواقع بيتين ويتبع ذلك ما يلزم لكل منهما من الاثاث والفرش . ولا بد له من فريقين من الخدم فريق يخدم الرجال في القسم المختص به والآخر يختص بخدمة النساء داخل البيت . ثم لا بد له من عربة للنساء وعربة

للرجال لانه ليس من الجائز فى عرفنا أن يركب الرجل مع زوجته أو مع والدته فى عربة واحدة وهو مضطر لان يزيد فى النفقة للطعام وما يتبعه لانه اذا أتى ضيف واحد رجلا كان أو امرأة وجب تحضير مائدتين بدل واحدة كانت تكفي . وهكذا ترى نفقات ضائعة وثمرات كسب مستهلكة ولا سبب لها الا تشديد الحجاب على النساء.

هل يظن المصريون أن رجال أوربا مع أنهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغاً مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على ما نشاهده باعيننا . وأن تلك النفوس التي تخاطر فى كل يوم بحياتها فى طلب العلم والمعالي وتفضل الشرف على لذة الحياة . هل يظنون ان تلك العقول وتلك النفوس التي نعجب بآثارها يمكن ان يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها ! هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيراً فيه ؟ — كلا . وانما الافراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقول السذج وتركن اليها نفوسهم ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق .

متى تهذب العقل ورق الشعور ادرك الرجل أن المرأة

انسان من نوعه لها ماله وعليها ما عليه وأن لا حق لاحدهما على الآخر بعد توفيةما فرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه الا ما يعطيه كل من نفسه بمحض ارادته وحسن اختياره .

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل عرف ان حجاب المرأة اعدام لشخصها فلا تسمح له ذمته بعد ذلك ان يرتكب هذه الجريمة توسلا الى ما يظنه راحة بال واطمئنان قلب متى تهذب العقل ورق الشعور فى الزوج وجد من نفسه ان لا سبيل الى اطمئنان قلبه فى عشرة امرأة جاهلة مهما كان الحائل بينها وبين الرجال

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل ادرك ان الذ شيء تشتاق اليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد نزعات الهوى ونزوات الشهوة فيسعى جهده فيما يقويه ويشد عراه ويبذل ما فى وسعه للمحافظة عليه

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل والمرأة لا تقتنع نفوسهما بالاختلاط الجسداني وحده بل يصير اعظم همهما طلب الائتلاف العقلي والوحدة الروحية

ان طبيعة العصر الذي نحن فيه منافرة للاستبداد معادية للاستعباد ميالة الى سوق القوى الانسانية فى طريق واحد وغاية واحدة . فهذا الطائف الرحماني الذي طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلا لا بد ان ينال منه النساء نصيبهن فمن الواجب علينا ان نمد اليهن يد المساعدة ونعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى الضعيفين المرأة واليتيم » . ولا شيء ادخل في باب التقوى من تهذيب العقل وتكميل النفس واعدادها بالتعليم والتربية الى مدافعة الرذائل ومقاومة الشهوات ولا من حسن المعاملة واللطف في المعاشرة فعلينا ان نجعل الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة لا صلة اكراه وقسوة . هذا ما تفرضه علينا الانسانية وتطالبنا به الشريعة وهو مع ذلك فريضة وطنية يجب علينا أداؤها حتى تكون جميع اعضاء المجتمع عندنا حية عاملة قائمة بوظائفها

وقبل ان اختم الكلام فى هذا الباب ارى من الواجب على ان انبه القاريء الى اني لا اقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه اليوم . فان هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها الوصول الى الغرض

المطلوب كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي. وانما الذي أميل اليه هو اعداد نفوس البنات في زمن الصبا الى هذا التغيير:

فيعودن بالتدريج على الاستقلال ويودع فيهن الاعتقاد بان العفة ملكة في النفس لا ثوب يختفي دونه الجسم. ثم يعودن على معاملة الرجال من اقارب واجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية واصول الادب تحت ملاحظة أوليائهن. عند ذلك يسهل عليهن الاستمرار في معاملة الرجال بدون ادنى خطر يترتب على ذلك اللهم الا في احوال مستثناة لا تخلو منها محجبة ولا بادية



المرأة والامة

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على ان يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم ان الامة المصرية دخلت اليوم في دور مهم بل في أهم دور من تاريخها اني لا أجد في ماضيها عصراً انتشرت فيه المعارف وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية وانبث الامن والنظام فى انحاء البلاد وتهيأت الاسباب للتقدم مثل العصر الذي نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة اخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هي فى هذا الزمن . فان تمدن الامم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه الى جميع انحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر الا وطئه بتقدمه . وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة . ولم يدع وسيلة من الوسائل

الا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وان اضر بجميع من حوله من سكان البقاع الاصليين . فانه انما يسعى الى السعادة في هذه الحياة الدنيا يطلبها انى وجدها وباي طريقة يرى النجاح فيها . وهو في الغالب يستعمل قوة عقله فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك او يستعمر لانه يجد ذلك متوفراً له في اعماله العقلية واختراعاته العلمية . وانما الذي يحمل الانكليزي على ان يسكن الهند والفرنساوي الجزائر والروسي الصين والالماني زنجبار هو حب المنفعة والرغبة في تحصيل الثروة من بلاد تحتوي على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !

فان صادفوا أمة متوحشة مهما كان بأسها أبادوا أهلها وأهلكوهم أو أجلوهم عن أرضهم كما حصل في امريكا واستراليا وكما هو حاصل الآن في افريقيا حيث لا يرى أثر لاهالي البقاع التي احتلها الاوروباوي لانهم خرجوا منها طوعاً أو كرهاً . وان صادفوا أمة كأمتنا دخل فيها نوع من المدنية من قبل ولها ماض ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم

بالمعروف . لكن لا يمضي زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على أهم أسباب الثروة لانهم أكثر مالاً وعقلا وعرفاناً وقوة فيتقدمون كل يوم وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه داروين قانون التزاحم فى الحياة فطرة الله التي فطر عليها جميع الانواع وأودعها لها لتعدها الى الرقي في درجات الكمال. فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود الى خفاء العدم . وما قوى عند التغالب اظفره الله بالنصر المبين فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهناً بظفره على انه افضل بني نوعه واكرمهم فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها . وهي ان تستعد الامة لهذا القتال ويأخذ له اهبتها وتستجمع من القوة ما يساوي القوة التي تهاجمها من أي نوع كانت : خصوصاً تلك القوة المعنوية وهي قوة العقل والعلم التي هي أساس كل قوة سواها

فاذا تعلمت الامة كما يتعلم مزاحموها . وسلكت فى

التربية مسالكهم . وأخذت فى الاعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به امكنها أن تعيش بجانبهم بل تيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم . لان البلاد بلادها وأرضها أبر بها منها بالغريب عنها وابناءها اقدر على المعيشة فيها . وهم السواد الاعظم فكيف اذا ظفروا من انفسهم بتلك الحال الشريفة لا يفلحون ؟

وهذه الطريق — طريق النجاة — كما قدمت مفتوحة امامنا ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا مايكون من انفسنا

فان كان للمصريين همة وصدق عزيمة في طلب سعادتهم والمحافظة على بقائهم والسعي الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة فعليهم ان يسلكوا تلك الطريق ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة وينزعوا من انفسهم كل خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم . وليعتمدوا على انفسهم فى اصلاح انفسهم . ولا يضيعوا اوقاتهم فى اماني باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم فان حكومتهم لا تستطيع من العمل لهم الا قليلا . أما هم فانهم يستطيعون أن يأتوا في اصلاح شؤونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم أن يقولوا كل يوم أن الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من ان نفعل ما

يجب علينا لأنفسنا ؟

نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا أظن أن مصر رأت ما يماثلهما في أى زمن من أزمانها. وهما الامران اللذان تحتاج اليهما الامة أشد الاحتياج ولا يتيسر بدونهما نجاح في عمل من الاعمال العظيمة التي يقوم بها اصلاحها . فما علينا الا ان ننتهز فرصة ما وصلنا اليه ونحرث ارضنا ونسقي غراسها وننتظر ما يأتي به من الثمرات فاذا نضجت اقتطفناها . وكما أن الزراع يجب عليه قبل أن يلقي البذور في الارض ان يهتم بمعرفة طبيعتها وما تحتاج اليه من الاعمال لتحضيرها وتهيئتها حتى لا يضيع ماله وتعبه كذلك يجب علينا أن نبحث في أسباب تاخرنا. فاذا عرفناها عمدنا الى ازالتها وصنا أنفسنا من التخبط على غير هدى وارحنا انفسنا من التجارب العقيمة

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا أمراً لاحظه كل من له المام باحوال الشرق : وهو تأخر المسلمين عامة فيه أين كانوا . فالسبب يجب ان يكون عاماً أيضاً

أما اختلاف الشعوب والاقاليم فليس له تأثير كبير في انحطاط المسلمين . اذ لو كان له أثر لوجد اختلاف بين التركي

والمصري والهندي والفارسي والبشناقي والصيني من حيث العمران والمدنية ولكننا لا نرى اختلافاً بينهم من هذه الجهة وانما الاختلاف محصور في بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد. ذلك هو كل ما فعله اختلاف الشعوب والاقاليم. فالتركي مثلاً نظيف صادق شجاع والمصري على ضد ذلك الا انك تراهما رغماً عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل والكسل والانحطاط. اذاً لا بد ان يكون بينهما امر جامع وعلة مشتركة هي السبب الذي أوقعهما معاً في حالة واحدة

ولما لم يكن هناك امر يشمل المسلمين جميعاً الا الدين ذهب جمهور الاورباويين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين الى ان الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم حتى الذين يشاركونهم في الاقليم ويساكنونهم في البلد الواحد. ولم يقصد أحد منهم خصوصاً افاضل المسلمين المشتغلين باحوال الامم الاسلامية ان يتهم الدين الاسلامي الحقيقي بانه السبب في انحطاط المسلمين. فان كل من عرف هذا الدين من الاجانب فضلا عن ابنائه المنتسبين اليه يجل قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية في الامم التي انتشر

بينها برهنت على انه وسيلة من أفضل الوسائل وعامل من أقوى العوامل التي تسوق الانسان فى طرق الترقي والتقدم الى غايات السعادة . ولكنهم يرون ان ما يزعمه المسلمون اليوم ديناً وتسميه عامتهم بل وأغلب علمائهم بدين الاسلام قد اشتمل على امور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيقي الطاهر وانما هي بدع ومحدثات الصقت به : فهذا الخليط الذي سماه الناس ديناً واعتبروه اسلاماً هو المانع من الترقي .

وليس فى امكان احد ان ينكر ان الدين الاسلامي قد تحول اليوم عن أصوله الاولى وان العلماء والفقهاء — الا قليلا ممن انار الله قلوبهم — قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزواً وحقت عليهم كلمة الكتاب: « واتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا »

ولكني أعتقد ان هذا الانحطاط الذي طرأ على الدين ليس سبباً لما عليه المسلمون الآن وانما هو نتيجة لامر : هو الجهل الفاشي فى المسلمين عامة رجالا ونساء

كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه واصحابه كلهم

يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا في آن واحد . وصرحت السنة كما أجمعت عليه الأئمة بان لاقوام للدين الا بسلطة تحفظه . فلم يمض الا قرن واحد من عهد ظهور الاسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على أهم أقسام العالم . ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة اكراه الناس على الاخذ بهذا الدين وانما كانوا يفتحون البلاد دفاعاً عن الحوز وتوسيعاً لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة : وهو المقصد الذي يعمل له الاوروبايون في بلاد الشرق الآن

ثم لم يمض على ظهور الاسلام جيلان الا وقد اضاء الكون بنور العلوم التي نشرها المسلمون في كل أرض احتلوها وبلد أقاموا به فلم يتركوا فرعاً من العلوم ولا فناً من الفنون الا تعلموه وألفوا فيه وزادوا عليه حتى العرب — تلك الامة الامية التي ربما صح فيها قول ابن خلدون انها لاتصلح للمدنية أبداً — اندفعت بقوة ذلك التيار وعامل تلك النهضة الى منافسة مواطنيهم في خدمة العلم . وكانت هذه الحركة عامة في كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتتناوله مدارك البشر : هذا يشتغل بعلوم الكلام . وآخر بالعلوم الطبيعية

وثالث بالفلك والحساب. ورابع بالتاريخ والجغرافيا. وخامس بالفلسفة والاخلاق. ولم يهملوا الصناعات والتجارة فبنوا وشيدوا وامتلأت سفنهم بالبضائع تجري فى البحار حول الارض. واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الازمان الى ان رزيء المسلمون بوقائع التاتار فى الشرق وانقراض الخلافة منه. وزالت دولة العرب من الاندلس وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوروبا فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الاولى

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق باجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر فى شيء من علوم الكلام وبعض شيء من قواعد اللغة وانصرفوا عن كل شيء سواها

ولما ساد الجهل على عقولهم وتراكمت ظلماته فى اذهانهم لم يعد فى استطاعتهم أن يفهموا حقيقة الدين وشعروا أن ضعفهم لا يسمح لهم بان يتصعدوا اليه بعقولهم فانزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم فى مستو واحد. ثم أخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبي الاحمق! والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ويعجب بمعارفه ويؤذي نفسه والناس معه

أنظر الى الجاهل تجده دائماً يختار من فكرين أقلهما صواباً

ومن طريقين أصعبهما ومن عملين أضرهما . ذلك لان الحق سواءكان فضيلة أو مصلحة يلتبس بالباطل ويخفي على الناظر فلا يراه الا بعيدالنظر نافذالبصيرة في مصائر الامور وعواقبها ثم هو يحتاج في الوصول اليه الى عناء ينفر منه الجاهل الكسول وفيه حرمان من لذة حالية في سبيل منفعة مستقبلة

ومن رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشؤون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعنيهم . وصار منتهى علمهم أن يعرفوا في اعراب البسملة ما يزيد من غير مبالغة على الف وجه على الاقل . وان سألتهم عن شيء من الاشياء المتداولة في أيديهم كيف صنع أو عن حال الامة التي هم منها أو أمة أخرى تجاورهم أو الامة التي احتلت بلادهم أين موقعها الجغرافي وما منزلتها من القوة والضعف. بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من أعضائه أو مكانه من بدنه — هزوا اكتافهم ازدراء بالسائل والمسئلة واحتقاراً لهما. وان تكلمت معهم في نظام حكومتهم الداخلي وقوانينها وحالتهم السياسية والاقتصادية وجدتهم لا يدرون منها شيئاً. وسواء عاشوا في العز او في الذل فهم على كل حال عائشون وبما ينحطون اليه راضون.

ويرون ان ليس للانسان أن يعمل لمصلحة نفسه وان يختار لها أمراً .ويزعمون انهم وكلوا جميع أمورهم الى ما يجري به القضاء. مع انك تراهم أشد الناس احتيالا في طلب الرزق من غير وجهه واحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ونيل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم فهم في الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل وانما يحتجون بالقدر تضليلا للعامة واقناعاً للسذج بانهم في تقصيرهم في أداء ما فرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء

ظن هؤلاء المساكين انهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات وكيف تعذب الالفاظ بالاعراب والصرف عرفوا ما فى الدين والدنيا . والبعد بينهم وبين الدين الحقيقي عظيم

قال الاستاذ الشيخ محمد عبده فى بيان ما جاء به الاسلام كلاماً نأخذ منه ما يناسب المقام هنا لانه أحسن ما كتب فى هذا الزمان لتنبيه افكار المسلمين :

« طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل « نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ""فمن يعمل مثقال ذرة « خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره "" . "" وان ليس

« للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد ان يتناول من
« الطيبات ما شاء اكلا وشربا ولباساً وزينة . ولم يحظر
« عليه الا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ما
« تعدى ضرورة الى غيره . وحدد له في ذلك الحدود العامة
« بما ينطبق على مصالح البشر كافة . فكفل الاستقلال لكل
« شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى
« لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقا محترماً تصطدم به

« انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه
« القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله
« الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان
« وفي عقائد الامم . وصاح بالعقل صيحة ازعجته من سباته
« وهبت به من نومه طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع
« من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم
« نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة
« كليلة والازواد قليلة

« علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان
« الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدي

« بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل الحوادث . وانما
« المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون

« صرح في وصف أهل الحق بانهم « الذين يستمعون
« القول فيتبعون أحسنه » . فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غيره
« فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم
« يتبينوا صحته ونفعه . ومال على الرؤساء فانزلهم من مستو
« كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت انظار مرؤوسيهم
« يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون
« ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

« صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما
« توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين
« باقوال السابقين ونبه على ان السبق في الزمان ليس آية من آيات
« العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لاذهان على اذهان
« وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان . بل اللاحق
« من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما
« وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من
« اسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل

« الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم طغيان
« الشر الذي وصل اليهم بما اقترف سلفهم « قل سيروا في الارض
« فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . وأن ابواب فضل
« الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء لن
« تضيق عن دائب .

« عاب ارباب الاديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم
« عندما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم : « بل نتبع ماوجدنا
عليه آباءنا » . انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » (١)

ومما يستحق ان نفرح له هو أن نرى من علماء عصرنا
في مصر وفي غيرها من بلاد الاسلام شرقاً وغرباً يرون
ما نرى ويقولون ما نقول ويعترفون بان العلوم التي تقرأ الآن
في الازهر وفي غيره لا تفيد ان لم تؤسس على الحقائق العلمية
التي تهيء العقول لقبولها والانتفاع بها

وفي الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع
بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف العامة والمباديء العلمية . أليس
التوحيد هو خاتمة العلوم كلها وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم

(١) رسالة التوحيد : صحيفة ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢

شريعة كل نفس في ارتباطها بخالقها وفى معاملتها مع بقية البشر وكلاهما يحتاج الى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الافكار ويرتقي به العقل ؟ أليس العلم فى الحقيقة واحداً يشبه شجرة ذات فرع وأفنان تتصل كلها بأصل واحد وتتغذى من جذر واحد وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة هي معرفة حقيقية كل شيء فى الوجود

وما علينا الا ان نصغى لمقال هؤلاء العلماء الافاضل الذين هم أدرى منا بحاجات الدين ولا يخفى عليهم شيء من حاجات الدنيا وان نعضدهم في مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ويذلل العقابات ويتغلب على المصائب التي أقامها أهله فى طريقه

ولا حاجة بنا الى التطويل فى شرح امر صار معلوما عند الكل وهو انحطاط الدين اليوم فى جميع مظاهره حتى في العبادات وانما أردنا ان نبين ان انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول وان العلة الاولى التي هي مصدر غيرها من العلل التي حالت بيننا وبين الترقي هي اهمال التربية فى الرجال وفي النساء معاً

فان استمر ذلك السبب لم يصلح للامة حال بل يستمر كل أمر على حاله : والدين أيضاً . وان زال ذلك السبب صلح حال الامة في جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية وصلح معها الدين أيضاً

أما ان تربية الرجال تصلح شأن الامة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفاً عند كل أحد مسلماً عند الجميع . وأما وجوب تربية المرأة أيضاً فلا يزال محتاجاً الى البيان :

المرأة لا تكون خلقاً كاملا الا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية . أما تربيتها الجسمية فلانها لازمة لها في استكمال صحتها وحفظ جمالها . فيجب أن تربى كما يجب ان يربى الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة لان الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ولان ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية انما هو ناشيء عن عدم انتظام وظائف اعضاء الجسم .

فسلامة العقل فى جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم . وهذا هو السر فى تقدم الجنس الانكليزي السكسوني على غيره

ويرى القراء في الكتاب الذي ترجمه صديقي احمد فتحي

بك زغلول من اللغة الفرنساوية الى العربية (١) كيف ان نشاطهم وجراءتهم واقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التي تعترف كل الامم بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل والحرية والاستقلال في الاعمال مما له دخل كبير في تربية اطفالهم ذكوراً واناثاً. ولهذا ابتدأ الفرنساويون وغيرهم في تقليدهم لانهم ادركوا ان تربية العقل التي اعتنوا بها لا تثمر ثمرتها الا اذا صحبتها تربية الجسم وان موازنة العقل لا تتم الا بموازنة وظائف الجسم . واذا تذكر القارىء ما سبق بيانه من ان الولد يرث من ابويه خصوصاً من امه الحلة الجسمية والعقلية التي تكون عليها مدة حمله يعلم مقدار ما تستفيد المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة

واما تربيتها العقلية فلانها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها كما هي حالتها الان عندنا . نعم انها تلد وبحفظ بها النوع الانساني . لكنها في ذلك انما تؤدي وظيفة كل انثى من سائر انواع الحيوانات وهي لا تمتاز في عملها هذا عن نحو هرة ولود

---

(١) سر تقدم الانكليز السكسونيين

وفى الحق اناضيقنادائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالنتاج ولم نطلب منها شيئاً غير ذلك . وسببه اننا توهمنا ان المرأة لا تصلح لعمل آخر وان الرجال غير محتاجين للنساء في القيام بشؤون الحياة الخاصة والعامة وغاب عنا ان الرجل انما يكون في كبره كما هيأته والدته في صغره

فهذا الارتباط التام بين الرجل وامه هو الامر المهم الذي اريد ان يفهمه الرجال . وهو ثمرة كل ما وضعته في هذا الكتاب

اني اكرر ما قلته من انه يستحيل تحصيل رجال ناجحين ان لم يكن لهم امهات قادرات على ان يهيئنهم للنجاح . فتلك هي الوظيفة السامية التي عهد التمدن بها الى المرأة في عصرنا هذا وهي تقوم باعبائها الثقيلة في كل البلاد المتمدنة حيث نراها تلد الاطفال ثم تصوغهم رجالاً

وبديهي ان العمل الاول وهو الولادة هو عمل بسيط مادي تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة . اما العمل الثاني وهو التربية فهو عمل عقلي امتاز به النوع الانساني وهو محتاج في تأديته الى تربية واسعة واختبار

عظيم ومعارف مختلفة

والامر الذي يلزم ان تلتفت اليه كل امة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الامة لان العائلة هي اساس الامة . ولما كانت المرأة هي اساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية اول مؤثر في تقدم الامة وتأخرها

المرأة ميزان العائلة . فان كانت منحطة احتقرها زوجها واهلها واولادها وعاشوا جميعاً منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظاماً ولا ترتيباً في معيشتهم فتفسد آدابهم وعوائدهم. اما ان كانت المرأة على جانب من العقل والادب هذبت جميع العائلة واحترمها افرادها واحترموا انفسهم وعاش الجميع في نظام تام تحت لواء محبتها متضامنين اقوياء باتحادهم وهذه الصفات التي تشاهد في العائلة هي الصفات التي تشاهد في الامة اذ كل منا يسلك في امته مسلكه في عائلته. ومن المحال ان يكون للانسان من الصفات والاخلاق في امته ما ليس له نموذج في منزله . وان يعامل مواطنيه باخلاق غير التي يعامل بها أفراد عائلته . فان كان حسن الاخلاق

في عائلته كان كذلك في امته وان كان سيء الاخلاق في عائلته ساءت اخلاقه في امته ايضاً . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة في تقدم الامم وتأخرها

وبالجملة فان ارتقاء الامم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من اهمها ارتقاء المرأة . وانحطاط الامم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة ايضاً من اهمها انحطاط المرأة

فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا هو اهم مانع يقف في سبيلنا ليصدنا عن التقدم الى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التي ينتظر بها مرور الازمان ويجوز الابطاء في اعداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات . وانما هي من الحاجيات بل من الضروريات التي يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات. وهي الواجب الخطير الذي ان قمنا به وسهل علينا كل اصلاح سواه وان اهملناه افسد علينا كل اصلاح سواه

دلت التربية الجديدة التي منحها نساء اوروبا من نحو قرن على ان المرأة ليست تلك الالة البسيطة التي وقفها اولئك

الاسلاف الغافلون على التناسل . فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية محل الاستبداد رأى العالم ان في المرأة اسراراً لم تعرفها الجاهلية الاولى وانها تصلح لوظائف سامية مثل التي يصلح لها الرجال وان انحطاطها كان عارضياً لا طبيعياً. فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ومرنت قواها على العمل صعدت من العقل الى درجة وذهبت فى رقة الشعور الى غاية لم تكن تخطر في خيال احد من اهل تلك العصور الخالية . وهي الى الان كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها

كل مطلع على حركات النساء الغربيات واعمالهن لا يشك فى انهن يأتين من الاعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه: لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا والمراة عاملة فيه مع الرجال كتفاً لكتف ولا يوجد عمل خيري الا وهي في اول العاملين فيه. ولا تقع حادثه سياسية الا وللمراة نصيب فيها . وليس بين الصنفين فرق الا ان المرأة لم تنل الحقوق السياسيه فاذا منحتها كما هو المنتظر في بلاد اوربا تمت المساواة بينهما . على انها قد نالت

منها الان شيئاً كبيراً حيث خول لها حق الانتخاب فى امريكا وفى انكلترا في المجالس البلدية وفي فرانسا في المحاكم التجارية وفي بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة في المجالس الشورية. ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم اوربا وامريكا من جمعية للنساء همها أن تطالب بحقوق المرأة والسعي في سبيل اكتسابها. وكل سنة تمر تترك فى تاريخ اعمالهن اثراً شريفاً وتنتهي بفوز جديد

ولا يشك احد من الواقفين على هذه الحركة التي اظهر فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة ان المرأة لابد ان تصل فى زمن قريب الى مستو تبلغ فيه منتهى ماتطلب من مساواتها للرجال في جميع الحقوق . ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك الا الله وهل يقف النساء عند هذا الحد او يسبقن الرجال فى ميدان التقدم والترقي

ومن البديهي ان هذه القوى التي تصرفها النساء فى التجارة والصناعة والفنون والعلوم وان كانت كل واحدة منها على حدتها لا يظهر أثرها للناظر فى احوال الامة ولكن لجميعها مجموع واحد يظهر اثره فى احوالها تمام الظهور. وهي رأس مال عظيم

نحن مقصرون فى العناية و الانتفاع به

وعندي أن من أعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من اعمال النساء الخيرية . لان الميل الى الخير من غرائز المرأة الفطرية ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب. ولها من الصبر على خدمة الفقراء والمرضى مالا يتحمله أعظم الرجال جلداً. ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي وهذه الصفات توجد عند النساء فى الغالب . غير أن المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشداً يهديها الى سبل الخير فتصرف ما أودعه قلبها من كنوز الرحمة فى اصغر الامور واحقرها

هذا هو عمل المرأة فى الامم المتمدنة وقد وجد فى مبدأ الاسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن اثر في مصالح المسلمين العامة جميع المسلمين يعلمون ان طائفة عظيمة من الاحاديث النبوية على اختلاف مواضيعها قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة . وان عدداً غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر . وان عائشة تداخلت في مسئلة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض لاحد الخلفاء . واني اورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم

على الانضمام الى الطائفة التي كانت قد انحازت اليها وهي الخطبة التي القتها عند دخولها البصرة

« ان الغوغاء من أهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم
« رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدثوا فيه الاحداث وآووا
« فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنه الله ولعنة رسوله مع ما نالوا
« من قتل امام المسلمين (عثمان) بلا ترة ولا عذر . فاستحلوا
« الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام واحلوا البلد الحرام
« والشهر الحرام. ومزقوا الاعراض والجلود واقاموا في دار
« قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا
« متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في
« المسلمين اعلمهم ما اتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا
« وما ينبغي لهم ان يأتوا في اصلاح هذا وقرأت : (لا خير
« في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة اومعروف او اصلاح
« بين الناس) ننهض في الاصلاح ممن أمر الله عز وجل
« وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر
« والانثى فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه .

«ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره » (١)

ويروى عن أم عطية أنها قالت : (وغزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وكنت اخلفهم في رحالهم واصنع لهم الطعام واداوي الجرحى واقوم على المرضى

والذي يقرأ هذه الاسطر يتخيل له انه يرى امرأة غربية من الممرضات اللاتي وهبن حياتهن لخدمة الانسانية

والناظر في الاحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والامامة والشهادة في بعض الاحوال لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها. وان الشارع لم يراع فى هذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة وحصر الوظائف العمومية في الرجال. وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه الى الان التمدن فى اوربا ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى اعلى مرتبة تستحقها. وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة في جميع الاعمال المدنية — ومنها أهليتها لان تكون

(١) تاريخ الطبري جزء سادس صحيفة ٣١١٦

وصية على رجل — يستحسن مايخالفهامن عوائدناالتي تؤدي الى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق

والقاريء الذي تتبع سلسلة القواعد الكلية التي سردتها بغاية الايجاز لابد ان يكون قد لاحظ انها كلهاتتلخص في عبارة واحدة: هي انه لابدلحسن حال الامة من ان تحسن حال المرأة . فاذا ارسل الناظر فكره ليحيط باطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع اسرارها فيرى صورة لاتشابه الخيال الذي كان يظنه جسماً . يرى المرأة التي يهيئها المستقبل تتلألأ فى انوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولابسة حلة كمالها النسائي : الجسم والعقل

لا يتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها بل يحتاج الى تكميل نظام العائلة . نعم ان ارتقاءمدارك المرأة ممايساعد على كمال نظام العائلة ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالعوائد والاحكام الشرعية له هوالاخر دخل كبير فى ارتقاء المرأة وانحطاطها . ولهذا رأينا من الضروري استلفات الذهن الى اهم المسائل التي تمس بحياة العائلة وهى الزاوج وتعدد الزوجات والطلاق . وسنتكلم عليها باختصار على هذا الترتيب

١

الزواج

رأيت في كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بانه «عقد

يملك به الرجل بضع المرأة » وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير الى أن بين الزوج والزوجه شيئاً آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية . وكلها خالية عن الاشارة الى الواجبات الادبية التي هي أعظم مايطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر

وقد رأيت فى القرآن الشريف كلاماً ينطبق على الزواج يصح ان يكون تعريفاً له ولا أعلم أن شريعة من شرائع الامم التي وصلت الى اقصى درجات التمدن جاءت باحسن منه. قال الله تعالى : ,, ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ،، . والذي يقارن بين التعريف الاول الذي فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله يرى بنفسه الى أي درجة وصل انحطاط المرأة فى رأى فقهائنا وسرى منهم الى عامة المسلمين . ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التي سقط اليها الزواج حيث صار عقداً غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به وتبع ذلك ما تبعه من الاحكام الفرعية التي رتبوها على هذا الاصل الشنيع

فهذا النظام الجميل الذي جعل الله أساسه المودة والرحمة

بين الزوجين آل أمره بفضل علمائنا الواسع الى أن يكون اليوم آلة استمتاع في يد الرجل وجرى العمل على اهمال كل ما من شأنه ان يوجد المودة والرحمة وعلى التمسك بكل مايخل بهما :

فمن دواعي المودة أن لا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج الا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر. ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما . ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقي الشرعي استخففنا به وتهاونا بواجباته وكان من نتائج ذلك ان يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه

بينا فيما سبق ان جميع المذاهب فى اتفاق على ان نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها وذكرنا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به احد الانصار ان ينظر الى خطيبته وهو قوله « انظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينكما » . فما بالنا اهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة مع اننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها فى الاهمية ؟ ـ ذلك لان الجاهل من عادته ان يميل الى ما يضره وينفر مما ينفعه

كيف يمكن لرجل وامراة سليمي العقل قبل ان يتعارفا

ان يرتبطا بعقد يلزمهما ان يعيشا معاً وان يختلطا كمال الاختلاط؟ اري الواحد من عامة الناس لا يرضى ان يشتري خروفاً او جحشاً قبل ان يراه ويدقق النظر في اوصافه ويكون في امن من ظهور عيب فيه . وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار امامها الفكر !

لعلك تقول ان المراة ترى خطيبها من الشباك مراراً وان الرجل يعرف بواسطة امه او اخته اوصاف خطيبته مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما اشبه ذلك فيكون عنده علم بما هي عليه من جمال وشمائل . — نقول هذا قد يكون . ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ولا يمكن ان ينبعث عنها ميل الى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتتعلق بها وبنسلها الآمال . وانما الذي يهم الانسان البصير هو ان يرى بنفسه خلقاً حياً يفتكر ويتكلم ويفعل . خلقاً يجمع الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته وعواطفه .

كثيراً ما يرى الواحد شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك وبمجرد ما يقع عليه نظره تنفر منه نفسه في الحال نفوراً تاماً ولا يعلم

لذلك سبباً . وربما يستقبح الناظر شخصاً على بعد ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل منه ما وجد عنه أولا بضده وربما زين لاول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل ذلك الاحساس بضده لاول كلمة تصدر منها وخصوصاً أن هذا الاحساس المادي سواء كان ميلا أو نفوراً لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة. فان الانسان الواحد يكون منظره سبباً للنفور عند شخص وللميل عند شخص آخر !

فهذه الجاذبة الحسية لا بد منها عند الزوجين . وهي ان لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج مع بعضهما فلا ارى فى اي شيء آخر تكون لازمة !

على ان الانجذاب المادي ليس كافياً فى الزواج بل يلزم ان يوجد أيضاً توافق بين نفوس الزوجين . اي انه يوجد — لا اقول اتحاداً لانه مستحيل — وانما ائتلاف بين ملكاتهما واخلاقهما وعقولهما : ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده الا اذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلا

ولا يختلف اثنان فى ان الزواج الذي يبنى على هذا

التوافق يكون امراً محترماً فى نفوس الزوجين وتكون عقدته من المتانة بحيث لايسهل انحلالها ويكون ايضاً موجباً للعفة والتصون . وعندي ان كل زواج لايؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لاخير فيها لاحد من الزوجين مهما طال اجل الزواج ومهما كانت صفات الرجل والمرأة .ولهذا قال الاعمش : « كل تزويج يقع على غير نظر فامره هم وغم »

ولما كان الزواج لايراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد تنحل لاول عرض يطرأ عليها . واغلب ما يكون من ذلك لاسبب له الارغبة كل منهما في الخروج من قيد لا يرى وجهاً للمحافظة عليه والتنصل من امر لا قيمة له في نفسه .

وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب ان يكون للمرأة فى انتخاب زوجها ما للرجل فى انتخاب زوجته فانه امر يهمها اكثر مما يهم ذوي قرابتها . اما حرمانها من النظر فى كل ما يختص بزوجها وقصر الرأي فى ذلك على اوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب

قضت العادة عندنا ان يجتنب الحديث مع البنت فيما

يتعلق بالرجل الذي خطبها فلا يصلها خبر عن صفاته واخلاقه ولا تسأل هل تحب الاقتران به ولا يبحث احد عن ذوقها ورغبتها وميلها وهي لا تجد من نفسها جراءة على أن تبدي ما في ضميرها . ويرى الناس انه لا يليق بالمراة ان يكون لها صوت في اهم الاشياء لديها فيعطي القريب او البعيد رأيه في زواجها ما عداها ويظنون ان هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الادب وهم مخطئون فيما يظنون

منحت شريعتنا السمحاء الى النساء حقوقاً لا تنقص عن حقوق الرجال في الزواج. فلها الحق مثله في أن تتأكد بنفسها من امكان تحقيق آمالها . وما علينا الا نسمع صوت شريعتنا ونتبع أحكام القرآن الكريم وما صح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم واعمال الصحابة لتتم لها السعادة في الزواج

جاء في الكتاب العزيز: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» وكان ابن عباس يقول اتباعاً لهذه الآية الكريمة: «أني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب ان تتزين لي» وقال تعالى: «وعاشروهن بالمعروف» وقال في تعظيم حقهن: «وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً» وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين

ايماناً أحسنهم خلقاً والطفهم باهله » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب النساء كما ورد في الحديث: « حبب الي من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة » وكان يحترم النساء احتراماً برهن للعالم على حسن خلقه حتى أنه كان يضع ركبته على الارض لتضع زوجته عليها رجلها اذا ارادت أن تركب . وكان يتنازل الى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روي أنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها فسبقته يوماً وسبقها في بعض الايام فقال : « هذه بتلك » . وكان يرأف بالنساء ويوصي عليهن دائماً . فمما روى عنه قوله : « خياركم خياركم لنسائكم » . وقوله: « استوصوا بالنساء خيراً » . والاحاديث في هذا الموضوع كثيرة كلها تدل على أن الدين الاسلامي يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالاحسان والمعروف

ولكن ما دامت المرأة على ما هي عليه اليوم من الجهل فالزواج لا يكون — كما هو الآن — الا شكلا من الاشكال العديدة التي يستبد بها الرجل على المرأة

أما اذ تعلمت المرأة حقوقها وشعرت بقيمة نفسها عند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل

والمرأة معاً . عند ذلك تؤسس الزوجة على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حباً تاماً بجسمهما وقلبهما وعقلهما . عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل اليه وترتبط به بعقد الزواج ويعرف أهلها أن في كمال عقلها ما يكفي لحسن أختيارها فيكونون معها على اتفاق في الرأي فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليها . عندذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويذوقون لذة الحب الحقيقي

أنظر الى زوجين متحابين تجدهما من اليوم في نعيم الجنة ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خالياً من المال او ان يكون على المائدة عدس وبصل؟ اما يكفيهما فرح القلب في كل دقيقة تمر من اليوم : هذا الفرح الذي يبعث النشاط في الجسم والطمأنينة في النفس ويحيي في القلب شعوراً بلذة الحياة ويزينها له ويخفف ثقلها عليه ويجعلها منه في مكان الرضى حتى قال عمر ابن الخطاب: «ما اعطي العبد بعد الايمان خيراً من امرأة صالحة»

اين هذا من حال عائلتنا اليوم التي نرى فيها الزوجين واحدهما ابعد الناس عن الآخر . ولو لم يكن الا هذا البعد لخف احتماله . ولكن لما كان في طبيعة الانسان ان يجري وراء

سعادته كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها . ومن هذا الاعتقاد يتكون في المنزل جو مشحون بالغيام والكهرباء يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر . وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات في كل آن بسبب وبغير سبب في الصباح وفي المساء حتى وفي الفراش

تنتهي هذه الحالة بان تتخلى المرأة عن بيتها الى الخدم يفعلون فيه ما يشاؤن . فيستولى الاختلال على ما فيه وتظهر فيه آثار الاهمال فيبدو للناظر اليه كأنه غير مسكون باهله ويعلو التراب فراشه والقذر موائده وتغفل شؤون الزوج والاولاد في مأكلهم ومشربهم وملابسهم . وتقضي الزوجة أوقاتها في مكان واحد تفكر في سوء ما وصلت اليه أو تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها الهموم

وليس الرجل باحسن منها حالاً : فانه يهجر منزله ويستريح الى العيش في القهاوي أو عند جيرانه . فاذا رجع الى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر كما هو حاصل الآن انما هو طريقة يستعملها الرجل في الغالب للاستمتاع بعدد من

النساء يدخلن فى حيازته دفعة واحدة أو على التعاقب ولا تجد فيه المرأة مزية ترضي نفسها .

وكل رجل يقصد من الزواج أن تكون له صاحبة تشاركه في السرآء والضرآء يصعب عليه بل قد يتعذر أن يبلغ ما يريد من ذلك . ولهذا السبب رأينا في هذه السنين الاخيرة كثيراً من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه . ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد فى كل سنة — لان الشعور بوجوب تربية البنين تقدم وسيتقدم كثيراً فى المستقبل ـ صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية أمراً ضرورياً لا يستغنى عنه . والا فما علينا الا أن نعلن أن الثقة بالزواج قد فقدت وأن المعاملة به قد بطلت وحق عليه الافلاس

ولست مبالغاً ان قلت أن رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه آمانيهم المحبوبة . فانهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها وانما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لا خادمة تستعمل فى كل شيء . ويطلبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادىء الاخلاق الحسنة وقواعد الصحة .

وكل من تجرد من التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لا بد أن ينشرح صدره عند ما يرى نمو هذا الميل في نفوسهم ويرى من نفسه وجوب الاصغاء الى مقالهم والنظر في مطالبهم فلا يستهجنها لاول وهلة ولا يرميهم بالتفرنج في آرائهم قبل البحث فيها . بل يزنها بميزان العقل والشرع ومتى ثبت له أن هذا التغيير الذي نطلبه ليس الا رجوعاً في الحقيقة الى أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وأنه اصلاح يقضي به العقل السليم لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها .

٢

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الاسلام ومنتشرة في جميع الانحاء يوم كانت المرأة نوعاً خاصاً معتبرة في مرتبة بين الانسان والحيوان. وهو من ضمن العوائد التي دل الاختبار التاريخي على أنها تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية فتكون في الأمة غالبة عند ما تكون

حال المرأة فيها منحطة وتقل أو تزول بالمرة عند ما تكون حالها مرتقية. اللهم الا اذا كان التعدد لاسباب خاصة قضت به عند فرد أو أفراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم حتى فى الامة التي ألف تعدد الزوجات فيها نرى الرجل اذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله وأولاده وعرف ان من حقوقها ان تكون فى المرتبة التى تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة مال الى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ولا نظن أحداً ينازعنا فيه من أن هذه العادة خفت فى بعض الطبقات من أهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة

نعم ان من منع الرقيق كان له أثر محمود فى سقوط هذه العادة حيث قطع ورود الجواري التي كانت تملأ بيوت أكابر القوم واعيانهم. ولكن يظهر لى أن ترقي عقول الرجال وتهذيب نفوسهم له أثر مهم أيضاً فى تلاشيها. ذلك لان الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتهانها.

وبديهي أن فى تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة

لانك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها فى زوجها امرأة أخرى كما أنك لا تجد رجلا يقبل أن يشاركه غيره فى محبة امرأته وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعي للمرأة كما أنه طبيعي للرجل . ولو سلم أنه ليس بطبيعي كما ذهب الى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل الديك الواحد الذى يعيش بين العشرات من الدجاج فاقل ما فيه أنه ميل مكتسب بلغ من النفس الانسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التى تولدت فى نفوس افراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته من الحيوانية الى ما أعدله من الكمال الانساني . فهذا الاختصاص بما كسبه من التأصل فى الانفس والرسوخ فيها لا يقل أثره عن أثر الغرائز الفطرية

وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى اذ لا يخلو حالها من أحد امرين أما أن تكون مخلصة فى محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة فى قلبها وتذوق عذابها . وأما أن لا تكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من الاسباب فهي مع ذلك ترى لنفسها مقاماً فى أهله فاذا ارتبط باخرى سواها قاست من الالم ما يبعثه

احساسها بان ذلك المقام الذي كان باقياً لها قد انهدم ولم يعد لها أمل في بقاء شيء من كرامتها عنده . فالامل لاصق بها على كل حال

وان قيل ان التجارب دلت على امكان الجمع بين امرأتين او اكثر مع ظهور رضاء كل منهن بحالتها . فالجواب عنه من وجهين: الاول ان ما يدعى من رضاء كل منهن بحالها فليس بصحيح الا في بعض افراد نادرة لاحكم لها في تقدير حال امة وان وقائع المنازعات بين النساء وازواجهن والجنايات التي تقع بينهم مما لا يكاد يحصى . وهو شاهد على ان تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وبين ازواجهن ومصدر لشقاء الاهل والاقارب. فمن يدعي ان نساءنا يرضين بمشاركتهن في ازواجهن ويعشن مع ذلك باطمئنان قلب وراحة بال فهو غير عارف بما عليه حالة النساء في البيوت

والثاني ان ما يكون من ذلك الرضاء في القليل النادر ناشيء عن ان المراة انما تعتبر نفسها متاعاً للرجل فله ان يختص بها وله ان يشرك معها غيرها كيفما شاء . وليس لها على هواه حق تطالبه به : كما كان الرجال عندنا يعتبرون انفسهم متاعاً

للحكام فى عهد ليس بعيداً عنا

ويظهر لي ان رجلا مهذباً عارفاً بما يفرضه عليه الشرع والعدل لايطيق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين فضلا عن أكثر .

قدمنا ان فى فطرة المراة ميلا الى التسلط على قلب الرجل فاذا رأت بجانبه امرأة اخرى فى فطرتها ذلك الميل ويمكنها ان تبلغ منه بضروب الوسائل ما تشتهي تولاها الاضطراب والقلق وهجرتها الراحة وكانت حياتها عذاباً اليماً. وتلك الحال لا تخفى على الرجل المهذب . فكيف يمكن ان تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الاليم ؟

ويزيد النساء قلقاً واضطراباً ما صرح به الفقهاء من انه لا يجب على الرجل ان يعدل في محبته بين نسائه وانما طلبوا العدل في النفقة وما شاكلها

ولا ريب في ان شقاء المراة بهذه الحال يكون له اثر شديد في نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائماً بانه هو السبب فى هذا الشقاء .

ثم ان الاولاد من امهات مختلفات ينشؤن بين عواصف

الشقاق والخصام فلا يجدون ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم . بل يجدون ما يعاكس تلك الغرائز وينمي في نفوسهم البغضاء ولا يستطيع احد ان يحول بين ما يشهدون من تخاصم امهاتهم بعضهن مع بعض وتخاصمهم مع والدهم فيأثر ذلك في نفوسهم بل يسري في افئدتهم سم الغش والخدعة والشر ويظهر اثر كل ذلك عند الفرصة : مثلهم كمثل الممالك الاوروباوية تظهر بحالة السلم وهي تاخذ اهبتها للحرب حتى اذا حانت الفرصة وثب كل منهما على الآخر فمزق بعضهم بعضاً كما نشاهده في اغلب العائلات

أين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الاولاد في حضن والديهم . تجمعهم محبة صادقة . لا يتنافسون الا في زيادة الحب ولا يتسابقون الا الى الخير يصل من بعضهم لبعض يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كاعضاء جسم واحد ان فرح أحدهم فرحوا معه وان بكى بكوا معه . هم سعداء الدنيا في كل حال أسبغ الله عليهم اكبر نعمة يتمناها العاقل وهي المودة في القربى

فلا ريبة بعد هذا ان خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة . ذلك أدنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفي

زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة وأقرب الى الوصول الى سعادته .

ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة : اللهم الا في حالة الضرورة المطلقة كأن أصيبت امرأته الاولى بمرض من لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية . أقول ذلك ولا أحب أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى حتى في هذه الحالة وأمثالها حيث لا ذنب للمرأة فيها . والمروءة تقضي أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب أن تتحمل هي ما عساه كان يصاب به

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل أن يتزوج بثانية اما مع المحافظة على الاولى اذا رضيت او تسريحها اذ شاءت: وهي ما اذا كانت عاقراً لا تلد لان كثيراً من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل في عائلتهم .

أما في غير هذه الاحوال فلا أرى تعدد الزوجات الا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية . وهو علامة تدل على فساد الاخلاق واختلال الحواس وشره في طلب اللذائذ .

والذى يطيل البحث في النصوص القرآنية التي وردت

في تعدد الزوجات يجد أنها تحتوي اباحة وخطراً في آن واحد قال تعالى :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم .ذلك أدني أن لا تعدلوا » :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيماً » .

ومن هذه الآيات يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ثم صرح بان العدل غير مستطاع . فمن ذا الذي يمكنه ان لا يخاف عدم العدل مع ما تقرر من أن العدل غير مستطاع ؟ وهل لا يخاف الانسان من عدم القيام بالمحال ؟ اظن أن كل بشر اذا أراد الشروع في عمل غير مستطاع يخاف بل يعتقد أنه يعجز عن القيام به والوقوع في ضده .

ولو أن ناظراً في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيداً عن معناهما ولولا ان

السنة والعمل جاءا بما يقتضي الاباحة في الجملة .

وكأن مجموع الآيتين قد قضي بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة وبان الله تعالى وكل الناس في ذلك الى ما يجدونه من انفسهم . فمن بلغت ثقته من نفسه حداً لا يخاف معه ان يجوز واذا اراد ان يتزوج اكثر من واحدة ابيح له ذلك بينه وبين الله . ومن لم يصل الى هذا الحد من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه ان يتزوج اكثر من واحدة . ثم نبه مع ذلك على ان هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن ادراكها زيادة في التحذير .

وغاية مايستفاد من آية التحليل انما هو حل تعدد الزوجات اذا أمن الجور . وهذا الحلال هو كسائر انواع الحلال تعتريه الاحكام الشرعية الاخرى من المنع والكراهة وغيرهما بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح . فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو مشاهد في ازماننا او نشأ عن تعدد الزوجات فساد في العائلات وتعد لحدود الشرعية الواجب التزامها وقيام العداوة بين اعضاء العائلة الواحدة وشيوع ذلك الى حد يكاد يكون عاماً جاز للحاكم رعاية للمصلحة العامة ان يمنع

تعدد الزوجات بشرط او بغير شرط على حسب مايراه موافقاً لمصلحة الامة

وانه ليجمل برجال هذا العصر ان يقلعوا عن هذه العادة من انفسهم ولا اظن ان احداً من اهل المستقبل يأسف على تركها . فان التمتع بالنساء وان قل في هذه الحالة من الجهة الشهوانية فانه يزيد من الناحيه المعنوية التي يلزم ان تكون وجهة كل راغب في الزواج . فان رجلا يسوقه الى الزواج سائق العقل ويوجه رغبته اليه حادي الفكر يعلم انه انما يتخذ لنفسه بالزواج قريناً صالحاً يمده بالمعونة فى شؤونه ويؤنسه فى وحدته ويشفعه فى عمله ويقوم معه على بنيه ومن يعول من اهله. فهو يتخير لذلك خير العقائل واكرم السلائل ويصطفيها على ما يحب من العقل والادب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن يكون له منها منظر بهي وملمس شهي وصورة تعجب ومعنى يطرب . فهم يسبق الاشارة وذكاء يستغنى عن العبارة . لذة بلطف الشمائل ومتاع بجمال الفضائل .

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها لتكون صاحبة له مدة الحياة تأمن شره وانقلابه ويأمن منها المكر والخلابة. تحسن

القيام على اولاده بالتربية الصالحة.وتغذيهم بآدابها كما غذتهم بلبانها .فتأخذ ارواحهم من روحها ما أخذته ابدانهم من بدنها فينشأون على المحبة ويشبون على الالفة فيكون للرجل من ذلك كله مشهد ظاهره الراحة والطمأنينة وباطنه السعادة والهناء.عيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه.فاين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود الى ما انحط من دركات الشهوة ؟

٣

« الطلاق »

قال فولتير الكاتب الفرنساوي الشهير على طريقته من الفكاهة المعروفة في كثير من مؤلفاته « ان الطلاق قد وجد في العالم مع الزواج فى زمن واحد تقريباً غير اني اظن الزواج اقدم ببضعة اسابيع بمعنى ان الرجل ناقش زوجته بعد اسبوعين من زواجه ثم ضربها بعد ثلاثة ثم فارقها بعد ستة اسابيع » . وقد اراد بذلك ان يقول ان الطلاق قديم فى العالم وانه يكاد ان يكون من الاعراض الملازمة للزواج.وهو حق لا يرتاب

فيه فقد دل تاريخ الامم على ان الطلاق كان مشروعاً عند اليهود والفرس والرومان وانه لم يمنع الا في الديانة المسيحية بعد مضي زمن من نشأتها

ولا يزال اثر ذلك المنع باقياً الى الآن في شرائع الامم الغربية التي وضعت الزواج على قاعدة انه عقد لا يحل الا بموت احد الزوجين . وهذا افراط فى احترام هذا العقد ومغالاة فيه الى حد يصعب ان يتفق مع راحة الانسان

نعم ان من اماني الامم الصالحة ان تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تنحل الا بالموت . ولكن مما تجب مراعاته ان الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر

ولهذا فقد شعرت الامم الغربية على ممر الازمان بان احكام الكنيسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضروراتهم . وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس الى التخلص من ربقة تلك الاحكام فنزع الغربيون الى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم وما تقتضيه الحاجات ولقد أشتد هذا الشعور فى الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها الان تخضع لمطالبه وموافاة رغائب الكافة وحملها الشح

بمكانتها ان تسقط على تقرير احكام في احوال سمتها « احوال بطلان الزواج ». ورتبت على ذلك البطلان احكاماً لا تختلف في آثارها عن احكام الطلاق. فقبلت فسخ الزواج اذا اثبت احد الزوجين انه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيار او انه اخطأ في معرفة الآخر او اذا ادعى احد الزوجين ان الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية. واخذت تتوسع في تأويل الحالة الثانية الى درجة متناهية حتى ادخلت فيها كل شيء. وفي الحالة الاخيرة قد تكتفي بأن يتفق الزوجان على ان يدعي احدهما ان الآخر لم يقم او لم يعد في امكانه أن يقوم بأول واجب يوجبه الزواج لينالا بطلانه محتجة بأن الاخلال بهذا الحق لا تمكن معرفته الامن قبل الزوجين فقولهما هو الدليل الذي يصح التعويل عليه

الا ان هذا التساهل لم يف بحاجات الامم في هذا الباب فبعد ان قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة اخرى الى المطالبة بتقرير احكام كافلة للراحة. خصوصاً وقد رأت ان هذه الاسباب التي قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تغلب فيها الحيلة وقل ما تتفق فيها الحقيقة. وان قيام شريعة على قوائم من الحيل

مما لا ترضاه المهذبة والا ذواق السليمة

ومن أجل ذلك أضطرت الحكومات الى تقرير الطلاق والتصريح بجوازه على شروط بينتها وأوسعت له محلاً من قوانينها. وهكذا انحصر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله في هذه المادة كما بطلت سيطرتها في كل ما لم تتفق فيه أحكامها مع صالح تلك الامم. وهذا هو الشأن في كل شرع أو دين لا يراعي أهله في أحكامه مقتضيات الزمان والمكان ويغفلون عن طبيعة الانسان ويقفون به في مكان واحد عند ما قرره بعض من سبقهم بدون انعام نظره في أسراره وطرق تنفيذه

دخل الطلاق في جميع الشرائع الغربية تقريباً رغماً عن معارضة الكنيسة وأصرارها على القول بأن من طاق بحكم القانون لا يجوز له أن يتزوج لعدم اعتبارها ذلك الطلاق. ولكنه لم يصل الى الدرجة التي يستحقها من القبول والاعتبار ولم يستوف أحكامه الا عند الامة الامريكانية التي فاقت غيرها ببذلها المجهود في الاقدام على طلب الترقي ففتحت أبواب شريعتها للطلاق ولم تقيده باحوال مخصوصة كما قيده غيرها

وكل مطلع على أحوال الامم الغربية يرى الميل عند جميعها

الى التوسع فى الطلاق ولا بد أن تنتهي يوماً الى الاعتراف بان ما أباحته الى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على أحد الزوجين او الحكم عليه بعقوبة فى أحوال مخصوصة غير واف بالحاجة . وعند ذلك تقرر اباحة الطلاق متى وجدت أسبابه فى نفوس الزوجين وتتركه الى مشيئتهما

نعم ان اباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر . ولكنه من المضرات التي لا يستغنى عنها ويكفي لتسويغه ان منافعه تزيد عن مضاره . فان كل نظام لا يخلو من ضرر والكمال التام فى هذه الحياة الدنيا أمر غير مستطاع

ونحن لا نريد البحث فى هذا الموضوع الواسع لاننا اجتنبنا فى هذا المختصر كل بحث نظري . وانما نقول ان من أجال النظر فى نصوص الكتاب العزيز وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق وأحكامه يشعر بالنعم التي أفاضها الله على المسلمين ويقتنع بان كتاب الله قد اتى من الحكمة على منتهاها وأنه وفى كل شيء حقه

وأول ما يجب الالتفات اليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع اصلا عاماً يجب ان ترد اليه جميع الفروع في احكام

الطلاق وهو أن الطلاق محظور في نفسه مباح للضرورة والشواهد على ذلك كثيرة في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وما جاء في كتاب الائمة نورد منها ما يأتي :

قال تعالى : « فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »

وقال جل شأنه : «وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما »

وقال تعالى : «وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً او اعراضاً فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحاً . والصلح خير . واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً» .

وجاء في الحديث: « ابغض الحلال عند الله الطلاق». وقال عليه الصلاة والسلام : «لا تطلقوا النساء الا من ريبة. ان الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات » . وقال علي كرم الله وجهه « تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش » .

وجاء في حواشي ابن عابدين : ان الاصل في الطلاق الحظر بمعنى انه محظور الا لعارض يبيحه وهو معنى قولهم

الاصل فيه الحظر والاباحة للحاجة الى الخلاص.فاذا كان بلا سبب اصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقاً وسفاهة رأي ومجرد كفران بالنعمة واخلاص الايذاء بالمرأة وباهلها واولادها . ولهذا قال تعالى :،،فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ،، اي لا تطلبوا الفراق ،، انتهى (١)

والمطالع على كتب الفقه وان كان يجد ان جميع الائمة قد نظروا على العموم الى هذا الاصل الجليل الذي من شأن العمل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل اليه الامكان . لكنه لا بد ان يلاحظ أيضاً انهم لم يراعوا في التفريع تطبيق هذا الاصل على طريقة واحدة متساوية ويرى ان الفقهاء من اتباع الائمة قد توسعوا في امر الطلاق ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة في تطبيق الاحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف يشاهد على الخصوص في ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات

اولها ـ مسئلة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية فقد خالف بعض الفقهاء خصوصاً من المذهب الحنفي في هذه

---

(١) صحيفة ٥٧٢ جزء ٢

المسئلة الاصول العامة التي بني عليها معظم احكام الشريعة وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة كالاصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل المخطيء واخرج الطلاق من مشمول هذا الاصل فقضى بوقوعه على المكره والمخطيء والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بانه هو الذي لا يميز السماء من الارض

وظاهر ان اهل هذا الرأي لم يعولوا على النية التي هي اساس الدين الاسلامي كما يستفاد من حديث «انما الاعمال بالنيات» كما انهم لم يلتفتوا الى قصد الشارع فى ان الطلاق محظور فى الاصل وانه ابغض الحلال عند الله . وقد عللوا نفاذ الطلاق في الاحوال التي اشرنا اليها باسباب اذكرها للقاري واترك له مسؤلية الحكم عليها

قرأت فى كتاب الزيلعى ما معناه « ان طلاق الهازل والمخطيء يقع لان لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج . وان طلاق المكره يقع لانه عرف الشرين واختار اهونهما. واما السبب في وقوع طلاق السكران فلانه ارتكب معصية فيكون نفاذ الطلاق زجراً له ،، (١)

---

(١) صحيفة ١٩٥ جزء ٢

ولكنا نحمد الله على أن في المذاهب الاسلامية الاخرى ما يخالف ذلك ويتفق مع أصول الشريعة ومصلحة العامة ويمكن لمريد الاصلاح ان يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذى يقع في تلك الاحوال

ثانيها — ان الطلاق الذي نص عليه القرآن هو واحد رجعي دائماً. قال تعالى: « يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم. لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة. وتلك حدود الله ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه. لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم ». وقال تعالى: وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادا اصلاحاً

ولكن قسم الفقهاء الطلاق الى صريح وبالكناية وقالوا بالطلاق الصريح تقع واحدة رجعية ولو نوى أكثر من واحدة أو نوى واحدة بائنة. أما بالكناية فيكون الطلاق بائناً لا تصح بعده الرجعة ولا تحل الزوجة الا بعقد جديد الا في بعض الفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثاً ان نوى الثلاث

الا انه يوجد في مذهب آخر كمذهب الشافعي رضي الله عنه ان الكنايات جميعها رجعية. ووجه الحق في هذ المذهب ظاهر فانما الطلاق طلاق على كل حال وهو فصل عصمة المرأة من الرجل . فاختلاف الالفاظ بالنسبة الى هذا المعنى انما هو اختلاف عبارة لا يصح أن يتعلق به اختلاف حكم . ولو سلم اختلاف الاحكام باختلاف الالفاظ في مثل هذا الباب لكان الاوجه أن يكون حكم الكناية أخف من حكم الصريح

ثالثها — اتفق أغلب المذاهب على أن الطلاق ثلاثاً متفرقة في حيض واحد في او في مرة واحدة وبلفظ واحد يقع ثلاثاً . على أن هذا النوع من الطلاق الذي اعترف الفقهاء أنفسهم بانه بدعي — اي مخالف للكتاب والسنة — لا يمكن تصوره على الكيفية التي قررها الفقهاء ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم . قال تعالى : «الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان» . وجاء في تفسير هذه الآية في كتاب حسن الاسوة : «وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل طلقتان اشارة الى انه ينبغي ان يكون الطلاق مرة بعد اخرى لا طلقتان

دفعة واحدة . كذا قال جماعة من المفسرين » . وجاء فيه ايضاً : « قد اختلف أهل العلم فى ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثاً أو واحدة فقط . فذهب الى الاول الجمهور وذهب الى الثاني من عداهم وهو الحق . وقد قرره العلامة الشوكاني في مؤلفاته تقريراً بالغاً وافرده برسالة مستقلة . وكذا الحافظ بن القيم فى اغاثة اللهفان واعلام الموقعين » (١)

جاء فى ابن عابدين : « وعن الامامية لا يقع بلفظ « الثلاث ولا فى حالة الحيض لانه بدعة محرمة . وعن ابن عباس « يقع به واحدة وبه قال ابن اسحاق وطاوس وعكرمة لما فى مسلم « ان ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله « عليه وسلم وابي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث « واحدة . فقال عمر ان الناس قد استعجلوا فى امر كان لهم « فيه اناة فلو امضيناه عليهم فامضاه عليهم . وذهب جمهور « الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين الى انه يقع « ثلاثاً . قال فى الفتح بعد سوق الاحاديث الدالة عليه : وهذا « يعارض ما تقدم واما امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة

---

(١) صحيفة ١٦

« الصحابة له وعلمه بأنها كانت واحدة فلا يمكن الا وقد اطلعوا
« في الزمان المتأخر على وجود ناسخ او لعلمهم بانتهاء الحكم
« لذلك لعلمهم باناطته بمعان علموا انتفاءها في الزمن المتأخر
« وقول بعض الحنابلة توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
« مائة الف عين راته فهل صح لكم عنهم او عن عشر عشر عشرهم
« القول بوقوع الثلاث باطل. اما اولا فاجماعهم ظاهر لانه لم ينقل
« عن احد منهم انه خالف عمر حين امضى الثلاث ولا يلزم في
« نقل الحكم الاجماعي عن مائة الف تسمية كل في مجلد كبير
« لحكم واحد على انه أجماع سكوتي» (١)

وقد روى في هذه المسئلة من الاحاديث مالم يدع شكاً في ان الطلاق الثلاث في مجلس واحد لا يقع الا واحد. جاء في الزيلعي: «وقال ابن عباس اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال: «ايلعب بكتاب الله وانا بين اظهركم» . ذكره القرطبي ورواه النسائي(٢) وجاء فيه ايضاً: «وذهب اهل الظاهر وجماعة
« منهم الشيعة الى ان الطلاق الثلاث جملة لا يقع الا واحدة لما

---

(١) صحيفة ٥٧٦ جزء ثاني (٢) صحيفة ١٩٠ جزء ثاني

«روى عن ابن عباس أنه قال : «كان الطلاق الثلاث على عهد
«رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وسنتين من خلافة عمر
«رضى الله عنهم واحدة فأمضاه عليهم عمر رضى الله عنه
«رواه مسلم والبخاري. وروى ابن اسحق عن عكرمه عن ابن
«عباس انه قال : طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثاً في مجلس
«واحد فحزن عليها حزناً شديداً فسأله عليه الصلاة والسلام:
« كيف طلقتها ؟ قال طلقتها ثلاثاً في مجلس واحد . قال : انما
تلك طلقة فارتجعها (١)

يرى القارىء من هذه العبارات التي بسطناها ليحصل لنفسه منها رأياً ان علماء مذهب عظيم كمذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر رضي الله عنه بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبي ويمكن الامة اذا ارادت الاصلاح أن تأخذ بقولهم لان عمر رضي الله عنه قد بين لنا سبب قضائه بقوله : « ان الناس قد استعجلوا في امر كان لهم فيه اناة فلو امضيناه عليهم » فكأنه اجتهد في جعله عقوبة لردعهم عنه. وكلنا نعلم انه لم ينشأ من اجتهاد عمر الا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم

(١) صحيفة ١٩١ جزء ثاني

عليه فى محاوراتهم وايمانهم

بل لم لا يأخذ مريد الاصلاح بمذهب الامامية الذي نقله ابن عابدين وهو مذهب الائمة من آل البيت فى قولهم كما مر : ان الطلاق لا يقع بالطلاق الثلاث ولا فى الحيض لانه بدعة محرمة »

وان سمح لي القاريء ان ابدي هنا كل ما اظنه صواباً اقول لا يمكنني ان افهم ان الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة . نعم ان الامثال الشرعية لا تستغني عن الالفاظ اذ لو حللنا اي عقد لوجدناه مركباً من ظهور ارادة او مطابقة ارادتين حصل الاستدلال عليها او عليهما من الفاظ صدرت شفاهياً او بالكتابة ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الالفاظ . وانما مرادنا ان اللفظ لا يجب الالتفات اليه فى الاعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلا على النية

فينتج من ذلك انه يجب ان يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتماً وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة في انه انما يريد الانفصال من زوجته لا ان يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به فى كتبهم ان الطلاق هو

التلفظ بحروف (ط ل ا ق)

والذي يطلع على كتبهم يندهش عند ما يرى اشتغالهم بتأويل الالفاظ والتفنن في فهم معانيها في ذاتها بقطع النظر عن الاشخاص . وعندهم متى ذكر اللفظ تم الاثر الشرعي . ولهذا قصروا ابحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلات الكتب بالاشتغال بفهم طلقتك وانت طالق وانت مطلقة وعلي الطلاق وطلقت رجلك او رأسك أو عرقك وما اشبه ذلك . وصارت المسئلة مسئلة بحث في اللفظ والتركيب ربما كان مفيداً للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقاً علم الفقه بشيء

على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل ابحاثاً اخرى غير تأويل الالفاظ . والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعياً يترتب عليه ضياع حقوق وانشاء حقوق جديدة وهو في حد ذاته لا يقل عن الزواج في الاهمية حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث والنفقة والزواج . فالاستخفاف به الى هذا الحد أمر يدهش حقيقة كل من له المام ولو سطحى بالوظيفة السامية التي تؤديها الشرائع في العالم

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالالفاظ وبحثوا في مآخذ

الاحكام التي يقررونها وعرفوا تاريخها وأسبابهـا وقارنوا المذاهب بعضها ببعض وانتقدوها وبالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقي لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقاً الا اذا كان مصحوباً بنية الانفصال

ويمكن الناظر ان يجد في كتب الشريعة الاسلامية ما يفيد عدم صحة الطلاق اذا فقدت نية الانفصال فقد نقل عن شرح التلقين: «ان الرجل لو طلق زوجته بكلمة أو كلمات فى حال الغضب او النزاع لا يقع طلاقه». ورووا في ذلك احاديث مثل قول علي ابي طالب «من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب واللجاج فرق الله بينه وبين احبائه يوم القيامة قال الرسول عليه السلام»

نعم ان ناقل هذا القول اجتهد في رده وبالغ فى ابطاله ولكن مريد الاصلاح له ان يبحث في كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت خصوصاً اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاماً

نحن فى زمان الف رجال فيه الهذر بالفاظ الطلاق فجعلوا عصم نسائهم كأنها لعب فى ايديهم يتصرفون فيها كيف يشاؤن

ولا يرعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقاً . فترى الرجل منهم يناقش آخر فيقول له ان لم تفعل كذا فزوجتي طالق فيخالفه فيقال وقع الطلاق وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته وهي لا تعلم بشيء ما ولا تبغض زوجها . لا تود فراقه بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها . وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته و يألم لفراقها فاذا افترق منها بتلك الكلمة التي صدرت منه لا بقصد الانفصال من زوجته وانما بقصد الزام شخص آخر بالعدل الذي كان يريده كان الطلاق على غير نية منه .

رب رجل يناقش زوجته في بعض شؤون البيت فيرد على لسانه في وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد وعلى غير قصد منه لهدم العصمة فيقال ايضاً وقع الطلاق ويعقبه ايضاً ما سبق ذكره من البلاء الذي ينزل على الزوجين

رب فلاح يرتكب جريمة السرقة مثلا فيسأله العمدة أو مأمور المركز عما وقع منه فينكر فيستحلفه بالطلاق فيحلف انه ما سرق والحال انه سرق فيقال كذلك وقع الطلاق وهو لم يقصد بيمينه الا تبرئة نفسه ولم يخطر بباله عند الحلف انه

مباغض لزوجته كاره لعشرتها

فلم لا يجوز مع ظهور الفساد في الاخلاق والضعف في العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الائمة من ان الاستشهاد شرط في صحة الطلاق كما هو شرط صحة الزواج كما ذكره الطبرسي وكما تشير اليه الآية الواردة في سورة الطلاق حيث جاء في آخرها : « واستشهد ذوي عدل منكم » ؟

أليس هذا امراً صريحاً بالاستشهاد يشمل كل ما اتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع ان يكون للطلاق واقعة حال مشهورة لدى العموم ليسهل اثباته ؟ لم لا نقرر ان وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحاً فيمتنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذى يقع الان بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية في وقت غضب ؟ نظن ان في الاخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس . وما يدرينا ان الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل اليه الامة في زمان كزماننا هذا فانزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاماً لنا نرجع اليها عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم

بل ان ارادت الحكومة ان تفعل خيراً للامة فعليها ان نضع نظاماً للطلاق على الوجه الآتي

(المادة الاولى)

كل زوج يريد ان يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي بينه و بين زوجته .

(المادة الثانية)

يجب على القاضي او المأذون ان يرشد الزوج الى ما ورد فى الكتاب والسنة مما يدل على ان الطلاق ممقوت عند الله و ينصحه و يبين له تبعة الامر الذي سيقدم عليه و يأمره ان يتروى مدة اسبوع

(المادة الثالثة)

اذا اصر الزوج بعد مضي الاسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي او المأذون ان يبعث حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة أو عدلين من الاجانب ان لم يكن لهما اقارب ليصلحا بينهما

(المادة الرابعة)

اذا لم ينجح الحكمان فى الاصلاح بين الزوجين فعليهما ان يقدما تقريراً للقاضي او المأذون وعند ذلك يأذن القاضي او المأذون للزوج فى الطلاق

(المادة الخامسة)

لا يصح الطلاق الا اذا وقع أمام القاضي او المأذون و بحضور شاهدين ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية

والذى يتأمل فى الآيات التي سبق ذكرها فى الاستشهاد والتحكيم يرى ان نظاماً مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها في شيء. وليس لمعترض ان يحتج بان نظاماً مثل هذا يسلب الزوج حقه في الطلاق لان حق الزوج في الطلاق باق على ماهو عليه الآن. فهو الذى يملك عصمة الزواج وأسباب الفراق لا تزال متروكة لتقديره. وغاية مافي الامر اننا اشترطنا ان يسبق الطلاق تحكيم الحكمين ونصيحة القاضي. وليس في هذا تعد على حق من حقوق الزوج وانما هو وسيلة للتروي والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة واولادها بل ولمصلحة الزوج نفسه حيث نرى كثيراً من الازواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ثم يضطرون الى استعمال الحيل الدنيئة كالمستحل مثلاً لمداواة طيشهم

الا يرى افاضل الفقهاء ان مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هي تقليل عدد الطلاق فضلا عما فيها من اتباع أوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه في الآية التي ذكرناها واتباع امر شرعي بقى معطلا الى الآن حيث لم نسمع باجرائه يوماً خصوصاً في امة

كامتنا بلغ أمرها من فساد الاخلاق والطيش الى حد أن الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشي ويضحك ويتشاجر ويسكر وامرأته جالسة في بيتها لا تعلم شيئاً مما جرى فى الخارج بينه وبين غيره

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة فى مدة الثماني عشرة سنة الاخيرة على أن كل اربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط . واليك بيانها بالتفصيل

سنة	زواج	طلاق	سنة	زواج	طلاق
١٢٩٨	١٣٦٠١	٦٩٠٢	١٣٠٧	٥٧٠٠	٤٧٠٠
١٢٩٩	٤٩٠٠	٤١٥٢	١٣٠٨	٦٧٥٠	٥٩٠٠
١٣٠٠	٤٣٥٠	٤٦٤٨	١٣٠٩	٦٩٠٠	٥٥٤٨
١٣٠١	٣٤٠٠	٤٠٠٠	١٣١٠	٧١٠٠	٥٨٤٧
١٣٠٢	٤٧٠٠	٥٢٥٠	١٣١١	٧٤٠٠	٥٢٨١
١٣٠٣	٤٧٤٩	٥٥٠٠	١٣١٢	٨٢٥٠	٤٦٥٠
١٣٠٤	٤٨٥٠	٤٦٩٨	١٣١٣	١٤٢٥٠	٤٦٠٠
١٣٠٥	٤٧٤٩	٥٣٥٠	١٣١٤	٨١٥٠	٤٣٠٠
١٣٠٦	٥٠٠٠	٥٨٥٠	١٣١٥	٨١٤٨	٤٠٠٠

واذكر هنا احصائية اخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج الذى حصل في عموم القطر المصري فى سنة ١٨٩٨ :

١٨٩٨	١٢٠٠٠٠	٣٣٠٠٠	(١)

ومنها يظهر ان كل اربع زوجات تطلق منهن واحدة وتبقى ثلاث وهذه النتيجة وان كانت احسن من الاولى بسبب انها تشتمل على سكان الارياف الذين لا يطلقون مثل اهل مصر الا ان كلاهما من اقوى الحجج على اضمحلال حال العائلات عندنا وسهولة تهدم بنائها

ومن الغني عن البيان ان المرأة اذا ترقت وشعرت بجميع ما لها من الحقوق فانها لا تقبل ان تعامل بطرق القسوة والاهانة التي تعامل بها وهي جاهلة . وعند ذلك يحس الرجال انفسهم بانه ليس من اللائق بهم ان يستعملوا حق الطلاق الذى وكله الله بامانتهم الا عند الضرورة التي شرع الطلاق لاجلها . فتربية النساء مما يساعد على اصلاح اخلاقنا وتأديب السنتنا . فان الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ولكنه يشعر رغماً عن ارادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلا ومعرفة وعلواً فى الاخلاق فيعف لسانه عن ذكر ما لا يليق بها . ويؤدي لها حقوقها

ولكن لا يجمل بنا ان ننتظر ذلك الزمان الذي يبلغ فيه النساء بالتربية والتهذيب ما يملأ قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن بل يجب على كل من يهتم بشأن امته ان ينظر فى الطرق التي تخفف من مضار الطلاق الى ان يأذن الله بتلك الغاية التي هي منتهى كل غاية . وقد بينا ان مجموع المذاهب الاسلامية قد حوى من الاحكام ما يساعد على وضع حدود تقف عندها العامة وتكون مراعاتها من الوسائل الى

---

(١) هذه الاحصائية استخرجها من دفاتر المحاكم الشرعية حضرة عامر افندى اسماعيل الموظف بنظارة الحقانية والمنتدب الآن بالمحكمة الشرعية الكبرى

تقدمنا في طريق الصلاح . واقل ما يكون من اثرها ان لا تجد المفاسد سبيلا من الشرع الى ظهورها فبذلك يكمل نظام العائلة وتعيش المرأة فى طمأنينة وراحة بال ولا تكون فى كل آن مهددة بفقدها كانتها من العائلة بسبب و بلا سبب

ولكن لنا ان نلاحظ انه مهما ضيقنا حدود الطلاق فلا يمكن ان تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق : ومن حسن الحظ ان شريعتنا النفيسة لا تعوقنا في شيء مما نراه لازماً لتقدم المرأة . والوصول الى منح المرأة حق الطلاق يكون باحدي طريقتين الطريقة الاولى ان نجرى العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذى حرم المرأة فى كل حال من حق الطلاق حيث قال الفقهاء من اهله : (ان الطلاق منع عن النساء لاختصاصهن بنقصان العقل و نقصان الدين وغلبة الهوى) مع ان هذه الاسباب باطلة لان ذلك ان كان حال المرأة فى الماضي فلا يمكن ان يكون حالها في المستقبل ولان كثيراً من الرجال احط من النساء فى نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى . واستدل على ذلك بملاحظة وردت علي عند اطلاعي على احصائية الطلاق فى فرنسا فقد رأيت انه فى سنة ١٨٩٠ حكمت المحاكم الفرنساوية بالطلاق فى ٩٧٨٥ قضية منها سبعة آلاف تقريباً حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت امام المحاكم ان العيب كان من الرجال

ولا يصح فى الحق ان شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التي تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه كأن كان شريراً أو من ارباب الجرائم أو فاسقاً او غير ذلك مما لا يمكن معه لامرأة سليمة الذوق والاخلاق ان ترضى بعشرته

وقد وفى مذهب الامام مالك للمرأة بحقها فى ذلك وقرر ان لها ان ترفع امرها الى القاضي فى كل حالة يصل لها من الرجل ضرر جاء في كتاب البهجة فى شرح التحفة لابى الحسن التسولي ما يأتى :

« ان الزوجة التي في العصمة اذا اثبتت ضرر زوجها بها بشيء من « المتقدمة والحال انها لم يكن لها بالضرر شرط فى عقد النكاح من انه « ان اضر بها فامرها بيدها فقيل لها ان تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر « عند الحاكم من غير ان تستأذنه فى ايقاع الطلاق المذكور اي لا يتوقف « تطليقها نفسها على اذنه لها فيه وان كان ثبوت الضرر لا يكون الا « عنده كما ان الطلاق المشترط في عقد النكاح اي المعلق على وجود ضررها « لها ان توقعه بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقاً . وقيل حيث « لم يكن لها شرط به لها ان توقع الطلاق ايضاً لكن بعد رفعها اياه للحاكم « و بعد ان يزجره القاضي بما يقتضيه اجتهاده من ضرب اوسجن او توبيخ « ونحو ذلك ولم يرجع عن اضرارها. ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر. « ومنهم من قوله ان الطلاق بيد الحاكم فهو الذى يتولى ايقاعه ان « طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج وان شاء الحاكم امرها ان توقعه. فعلى « هذا القول لا بد ان يوقعه الحاكم او يأمرها به فتوقعه. واذا امرها « به فهي نائبة عنه فى الحقيقة كما انه هو نائب عن الزوج شرعاً حيث « امتنع منه . وروى ابو زيد عن ابن القاسم انها توقع الطلاق « دون امر الامام . قال بعض الموثقين والاول اصوب »

الطريقة الثانية — ان يستمر العمل على مذهب ابي حنيفة ولكن تشترط كل امراة تتزوج ان يكون لها الحق فى ان تطلق نفسها متى شاءت او تحت شرط من الشروط: وهو شرط مقبول فى جميع المذاهب

وهذه الطريقة افضل من الاولى من بعض الوجوه . فان من المضار الحقيقية التي تتفق كل النساء فى التحفظ منها و بذل المستطاع فى اتقائها ما لا يكون سبباً يسمح للقاضي ان يحكم بالطلاق فى مذهب مالك وذلك كتزوج الرجل بامرأة اخرى وزوجته الاولى في عصمته. فان الزوجة الاولى لو رفعت شكواها الى القاضي وطلبت منه ان يطلقها لم يجز للقاضي ان يجيب طلبها فلو اشترطت ان تطلق نفسها متى شاءت او عند ما يتزوج زوجها عليها كان الامر بيدها . ولكن العمل على الطريقة الاولى احكم واحزم فان وضع الطلاق تحت سلطة القاضي ادعى الى تضييق دائرته وادنى الى المحافظة على نظام الزواج

ولما كان تحويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والانسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم تتحمل ارواحهم بالوجدانات الانسانية السليمة كان لى الامل الشديد فى ان يحرك صوتي الضعيف همة كل رجل محب للحق من ابناء وطني خصوصاً من اولياء الامور الى اغاثة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات

خاتمة

تبين للقارىء مما سبق ان ما نريد ادخاله من الاصلاح في حالة النساء ينقسم الى قسمين: قسم يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية. والقسم الثاني يتعلق بدعوة اهل النظر في الشريعة الاسلامية والعارفين باحكامها الى مراعاة حاجات الامة الاسلامية وضروراتها فيما يختص بالنساء وان لا يقفوا عند تطبيق الاحكام عند قول امام واحد انما كان اجتهاده موافقاً لمصلحة عصره. وان يدققوا البحث فيما تغير من الاحوال والشؤون فان وجدوا في قول امام ما تتعسر معه المحافظة على كرامة الشرع اقاموا مقامه قول امام آخر يكون في مذهبه ما يسد الحاجة بدون خروج عن اصول الشريعة العامة

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الاصلاح هو كغيره من سائر الاعمال النافعة انما يتم بالعلم والعزيمة :

١

﴿ اما العلم ﴾

فهو وسيلة الامة لمعرفة حاجاتها و به تتنبه اذهان افرادها الى ما هم فيه وما درجوا عليه من الاخلاق والعوائد والكمالات والنقائص بحيث يكونون على شعور دائم باحوالهم وتكون تلك الامور دائماً موضوع بحثهم

ان من الغفلة بل من اسباب الشقاء ان تكون شؤونها في حياتنا قائمة بعوائد لا نفهم اسبابها ولا ندرك آثارها في احوالنا بل انما نتمسك

بها لانها جاءت الينا ممن سلفنا وورثناها عمن تقدمنا وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا ومع ان هذا وحده لا يكفي لان يكون سبباً في الاخذ بها ولا في الثبات عليها بل يجب ان نفهم ان لنا مصالح ولمن سبقنا مصالح ولنا شؤون ولهم شؤون ولنا حاجات لم تكن لهم وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم وذلك من البديهي الذي لا يختلف فيه اثنان

فعلينا ان نأخذ من العوائد وان نكسب من الاخلاق ما يلتئم مع مصالحنا فنكون مالكين لمصادر اعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع لا ان نكون عبيداً لعاداتنا التي وجدنا عليها آبائنا فيكون مثلنا مثل رجل وجد لباسه ضيقاً فرأى ان يجوع ليهزل ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسعه لباسه لا ان يصلح لباسه بتوسعته حتى يتفق مع جسمه.

انا لا نجد عقبة في طريقنا الى السعادة اصعب اجتيازاً من شدة تمسكنا بعادات من سلفنا من غير ان نميز بين تلك العادات صالحها وطالحها نعم ان الماضي لا يصلح ان يطرح جملة. لكن يجب ان ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما اظهر من منافع ومضار

لا ارى اعجب من حالنا : هل نعيش الماضي او المستقبل؟ هل نريد ان نتقدم او نريد ان نتاخر؟ نرى العالم في تقلب مستمر وشؤونه في تغير دائم ونحن ننظر الى ما يقع فيه من تبدل الاحوال بعين شاخصة وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لا ندري ماذا نصنع ثم ننهزم الى الماضي نلتمس فيه مخلصا ونطلب منه عوناً فنرتد دائماً خائبين

رأينا في هذا القرن حادثة عجيبة اظنها وحيدة في التاريخ. راينا أمة بتمامها خلعت عوائدها وابطلت رسومها وتخلت عن نظاماتها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها فقطعت كل وصلة بينها وبين ماضيها

الا ما كان متعلقاً بجامعة شعبها . ثم همت فبنت بناء جديداً مكان البناء القديم فلم يمض عليها نصف قرن الا وقد شيدت هيكلا جميلا على آخر طرز افاده التمدن فهبت من نومها ونشطت من عقالها وشعرت بان الحياة تدب في بدنها وتجرى في عروقها دماً حاراً قوياً فتياً : تلك هي الامة اليابانية صارت تعد اليوم في صف الامم المتمدنة بعدان قهرت في بضعه ايام دولة الصين الجسيمة التي لم يقتلها الا اعجابها بماضيها. اليس في ذلك عبرة لكل متبصر ؟

لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لها اساس في شريعتنا لكان في ميلنا الى المحافظة عليها ما يشفع لنا أما وقد برهنا على ان كل ما عرضناه من اوجه الاصلاح يتفق تمام الاتفاق مع احكام الشريعة ومقاصدها فلم يبق لنا عذر في التمسك بها سوى أنها قد تقدست بمرور الزمان الطويل وانا غفلنا عن مصالحنا وتدبير شؤوننا

اذا توهم بعض القراء ان ما ورد في كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال دفعاً للفتنة هو من الاحكام الدينية التي لا يجوز تغييرها فنقول ان هذا الاعتراض مردود بان الاحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه للعادات الحسنة ومكارم الاخلاق ووكلت فهم الجزئيات الى انظار المكلفين ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بين اصحابه واتباعه

ولما اتسعت خطة الاسلام وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الامم وعرضت عليهم حاجات وضرورات اقتضت احكاماً ومشروعات جديدة قام المجتهدون بينهم واستنبطوا لهم من اصول الشريعة العامة ما

يناسب الوقائع الخاصة ففصلوا ما اجمله القرآن والسنة من الاحكام وفرعوا منها ما يناسب الاحوال والامصار والاعصار . فهم لم يضعوا بذلك شرعاً ولم يضيفوا على الدين شيئاً وانما كان اجتهادهم قاصراً على النظر فى الجزئيات وردها الى كلياتها المقررة فى الكتاب والسنة

الا ترى ان القرآن لم يبين اهم الفروض مثل احكام الصلاة ومواقيتها وركوعها وسجودها ولا مقادير الزكاة واوقاتها ولا مناسك الحج. وان السنة هي التي رسمت جميع الاحكام مجملة ثم جاء المجتهدون ففصلوا احكامها وقرروا فروعها ؟

على هذا النمط تألفت شريعتنا : من فروع كلها راجعة الى اصل واحد . فالشريعة الاسلامية انما هي كليات وحدود عامة. ولو كانت تعرضت الى تقرير جزئيات الاحكام لما حق لها ان تكون شرعا يمكن ان يجد فيه كل زمان وكل امة ما يوافق مصالحهما

فهذه القواعد الكلية التى تحدد اعمالنا بحدود يجب الانتباه اليها على حسب ما ورد فى الكتاب والسنة الصحيحة هي التى لا تقبل التغيير والتبديل . اما الاحكام المبنية على ما يجري من العوائد والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الاحوال والازمان وكل ما تطلبه الشريعة فيها هي ان لا يخل هذا التغيير باصل من اصولها العامة. فكشف الراس مثلا قبيح فى البلاد الشرقية لانه كان معتبراً فى العادة مخلا بالمروءة ولهذا السبب اعتبر عند اهل الشرق قادحاً فى العدالة . ولكنه غير قبيح فى البلاد الغربية فلا يكون عندهم قادحاً . فالحكم الشرعي يجب ان يختلف باختلاف ذلك . وجواز اثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الغرض منه معنى مخصوصاً فى اشخاص الشهود وانما الغرض منه

اثبات هذه التصرفات بالطريقة التي وقع الاصطلاح عليها ولم يكن غيرها مألوفاً . فاذا تغيرت الاحوال وتبدل الاصطلاح واعتاد الناس على التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعي وتحولت طريقة الاثبات من الشهادة الى الكتابة . واذا قيل باستحباب ستر المرأة وجهها عن الرجال لخوف الفتنة وعدم الاقتضاء الحال لكشفه في زمان كان هنالك محل لخوف الفتنة ولا تقضي ضرورات الحياة على المراة بكشف وجهها فلا مانع من ان يتغير هذا الاستحسان الى ضده في زمان آخر . ذلك لان اختلاف الاحكام باختلاف العوائد والمصالح ليس في الحقيقة اختلافاً في الشريعة وانما هو رد لاحكام الجزئيات الى اصولها الكلية ورجوع بها الى مقاصدها الشرعية

تبين من ذلك ان لنا في ما كانا وملبسنا ومشربنا وجميع شؤون حياتنا العمومية والخصوصية الحق في ان نتخير ما يليق بنا و يتفق مع مصالحنا بشرط ان لا نخرج عن تلك الحدود العامة التي اشرنا اليها

اما التزامنا بما وجدنا عليه آباءنا وعدم الخروج عن الدائرة التي رسموها لانفسهم فهو القضاء على الامة الاسلامية بجمود القرائح وتقييد الارجل وغل الايدي عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به في سبيل سعادتها . بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال

٢

« واما العزيمة »

فهي حث الارادة الى كل خير ارشدنا اليه العلم والعرفان والفرار بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب . العزيمة هي اشرف قوى الانسان واجلها واعظمها اثراً في اعماله . فالتعليم والتهذيب وسعة

العقل والاميال الحسنة والغرائز الطيبة كل ذلك لا يفيد فائده تذكر عند شخص مجرد عن العزيمة: ولهذا كان ضعف الارادة اكبر عيب في الانسان. نرى الكثير من اهل بلادنا يستحسنون فكرة او عملاً ولكنهم لا يجدون من انفسهم همة كافية لخدمة تلك الفكرة او ذلك العمل ويكفي انهم يعلمون ان بعض الناس لا يتفق معهم في رأيهم لتلاشي ارادتهم وسقوطها . اما اذا علموا انه ربما يمسهم ضرر ما من ناحية ذلك العمل رأيتهم يفرون منه فراراً

ان كان لنا امل في نجاح ما نعده صالحاً لنا فانما يكون في الرجل الذي يجب ان يعرف و يبحث ليعرف و يعرف بالفعل ما تحتاج اليه بلاده وله عزيمة تدفعه الى العمل في جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها بالوسائل التي تؤدي الى المطلوب بطبيعتها طال الزمان او قصر

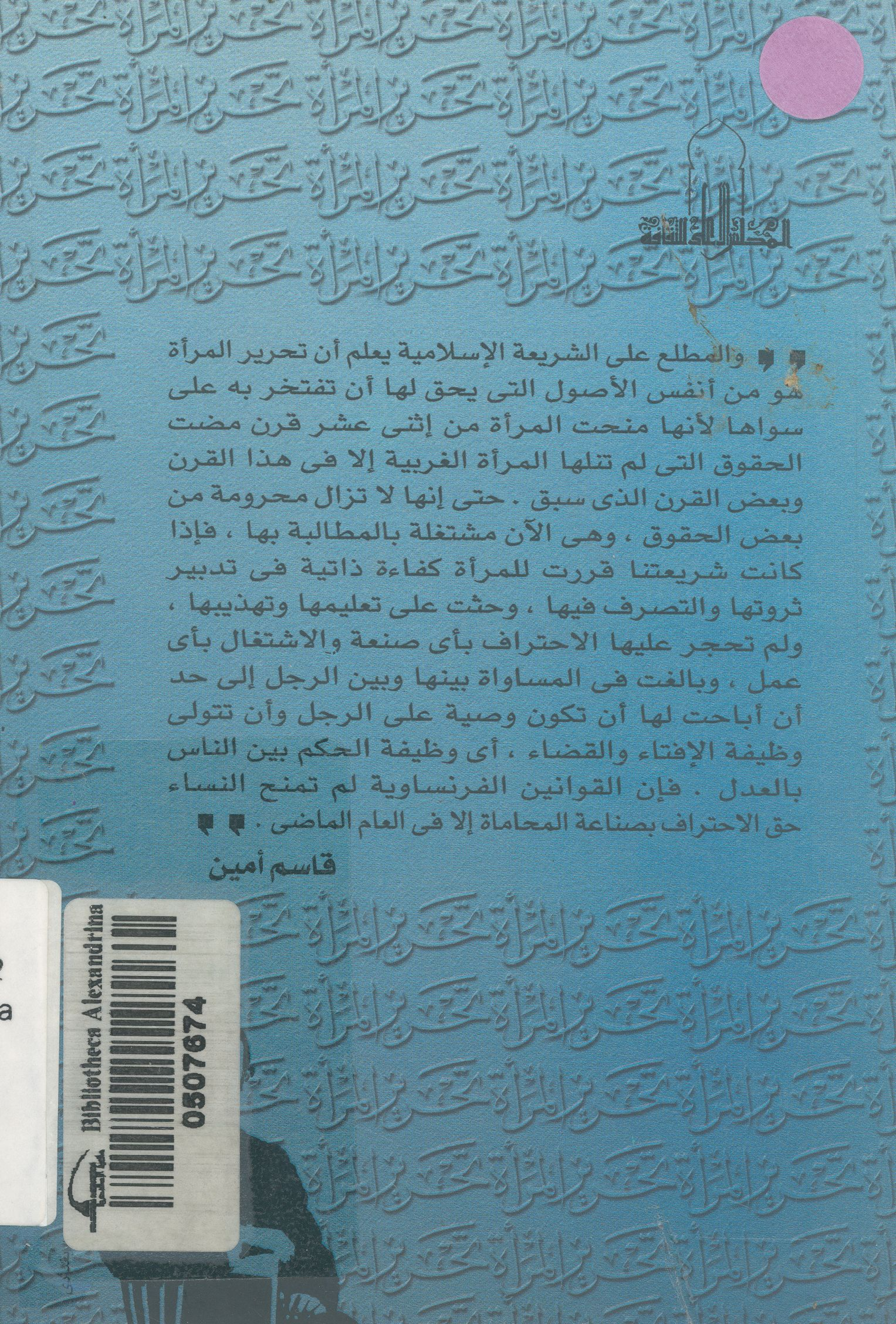
فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصدده بعد العلم بان الخطوة الاولى في كل شيء هي من اصعب الامور لان الانتقاد جميعه ينصب على من يبتدىء في امر خطير . ومن النادر ان يوجد شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام

فاحسن طريقة اراها لتنفيذ ما عرضناه في هذا الكتاب هي ان تؤسس جمعية يدخل من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة التي شرحناها وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين (ولا اظن ان الطبقات العليا من اهل بلادنا تخلو من واحد منهم) وان يكون عمل هذه الجمعية في امرين : الاول التعاون على تربية البنات على هذه القاعدة الجديدة . . والثاني السعي لدى الحكومة في اصدار

القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط ان لا تخرج فى شيء من ذلك عن الحدود الشرعية ولكن بدون ان تتقيد بمذهب من المذاهب بل تاخذ عن كل منها ما هو موافق لحاجاتنا الحاضرة وضرورات عصرنا كما حصل مثل هذا فى وضع المجلة العثمانية وكما حصل عندنا مراراً فى بعض المسائل المتعلقة بالمحاكم الشرعية . فاذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل واحد من اعضاءها فان قوة الانتقادات تبقى متوزعة على جملة من الافراد فيسهل احتمالها ومقاومتها فلا يكون فى شدة الانتقاد ما يبعث على فتور الهمة وضعف الارادة عن العمل . لان فى قوة الجماعة من الاقتدار على المدافعة ما ليس فى قوة الفرد الواحد : والاجتماع هو القوة الحقيقية التي بدونها لا ينجح شيء

نرى حكومتنا تهتم بمسئلة صغيرة كمسئلة الشفعة فتعين لها لجنة شرعية لتبحث فى المذاهب وتجمع ما تراه مناسباً من الاحكام . ونرى كثيراً من المصريين يدخلون فى كثير من الجمعيات مثل جمعية الرفق بالحيوان ومعارض الازهار وغيرها ولا يضنون بوقتهم ولا بمالهم فى تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صلاحيته . ونرى الجرائد تنشر بين طبقات الامة من المعارف ما يساعد على تربيتها وتهذيبها وقد آن الوقت الذي يجب فيه على الحكومة وعقلاء الامة وارباب الاقلام ان يوجهوا التفاتهم الى حال المرأة المصرية فاني لا ارى مسألة تمس حياة الامة اكثر منها ولا أحق منها بان تكون موضوعاً لنظرهم ومجالا لآرائهم وافكارهم

(تم الكتاب)



Bibliotheca Alexandrina
0507674